أدب البيئة

بين

الأصالة والمعاصرة

الأستاذ الدكتور

السيد محمد الديب

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

توزيع المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة

٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف

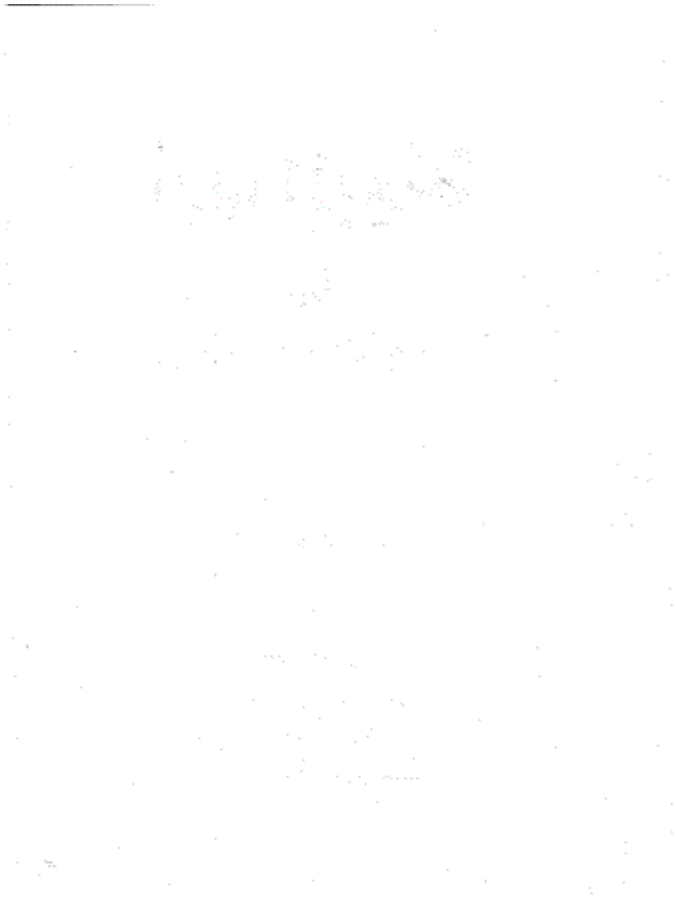

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لم ينفصل الأدب العربى قديما وحديثا عن البيئة أو المجتمع الذى يحيا المبدعون فيه ، ويعبرون عنه بأساليب وأنماط تختلف من عصر إلى آخر حسب الرؤية والأداة ، ولذلك لا ينبغى إغفال ما قام به الأدب فى معالجة القضايا المختلفة، وإبراز الجوانب البارزة لنشاطات الإنسان ومتابعة التطور الذى كان ثابتا أصيلا، وهادئا بطيئا عند القدماء ، ثم غدا سريعا بارزا ومتنوعا شاملا عند المعاصرين .

وقد لوحظ فى السنوات الأخيرة ما يعانيه الأدب من عزلة عن القضايا الجديدة ، خاصة بعد أن اختفى من الساحة الأدبية أساطين الثقافة والفكر مثل عباس العقاد والدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل وغيرهم.

ونشهد أن كثيرا من الهموم لا أثر للأدب فيها الآن مثل تنمية الشعور الدينى، والهوية العربية، وحوار الحضارات والثقافة المتجددة ، والأزمات الاجتماعية الحادة ، التى يعانى الناس منها .

وأكاد أجزم بأن الحياة الأدبية فى النصف الأول من القرن العشرين — بخاصة — كانت نمطا فريدا لم يبأس فيه أدباؤنا العظام من ممارسة حقوقهم المكتسبة فى التعبير بأقلامهم الحرة الجريئة ، وأن الأوضاع المختلفة من سياسية وثقافية واجتماعية قد تحولت إلى أشكال وأنماط لم تكن تخطر على بال أحد، فقفزت معدلات التعليم إلى مستويات عالية زالت معها معالم المجتمع التقليدى الموروث .

وقدم الفن القصصى العديد من الصور الاجتماعية التى عبرت عن كفاح الشعب العربى فى كل مكان، وخلفت البطالة وما يترتب عليها من فراغ أجيالا تؤمن ببعض المذاهب الفكرية المتطرفة، والآراء الأصولية المتشددة، فوقع عن جهل أو سوء فهم فى براثن التطرف أو العنف ، حيث اتخذها مهربا أو نوعا من اليأس والخنوع ٠

وتأتى بعد هذه المقدمة بداية الكتاب حيث كان الحديث عن الأعشى (ميمون بن قيس) استهلالا له، ذلك الشاعر الذى علا صوته فى الفخر القبلى، خاصة ما قاله يوم ذى قار الذى انتصرت فيه قبيلة بكر على الفرس انتصارا مدويا، ومن قوله فى هذه المناسبة :

إذا أمالوا إلى النُشّاب أيديهم ∴ ملنا ببيضٍ فظل الهام يُختَطفُ

وخيلُ بكرٍ فما تنفك تطحنهم ∴ حتى تولوا وكاد اليوم ينتصفُ

لو أن كلَّ مَعَدٍّ كان شاركنا ∴ فى يوم ذى قار ما أخطاهمُ الشرفُ

فارتباط الأعشى بقبيلته لا حدود له ، فبها يفتخر ولها يهجو، ومن أجلها يدور بين القبائل رافعا صوته فى كل مكان ٠

أما أبو نواس فبدأ حياته سكيرا ماجنا؛ لكنه لم يغفل عن الزهد ، ولم يغلق أذنيه من مناجاة الله والاستغاثة به فى كثير من الثوابت، كما أن وصفه للدنيا صار مضربا للأمثال، ولا ننسى هذا البيت:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ∴ له عن عدو فى ثياب صديق

ومن مناجاته لربه قوله :

يا رب إن عظُمت ذنوبى كثرةً ∴ فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجـوك إلا محسـن ∴ فبمن يلوذ ويستجير المجـرمُ
أدعوك ربى كما أمرت تضـرعا ∴ فإذا رددت يدى فمن ذا يـرحم
مالى إليـك وسـيلة إلا الرجـا ∴ وجميل عفوك ... ثم إنىّ مجرم

ويتجلى أدب البيئة بصورة واضحة فى الحديث عن موضـوعين يختلفان فى التناول والعرض عما سبق وهما:

ملامح البيئة المصرية فى شعر البهاء زهير، والحياة الاجتماعيـة كما صورها البوصيرى، فلهذا الشاعر رغبة فى التعبير عـن البيئـة، ومتطلبات الأمة ، وحاجات المجتمع .

ومن الملاحظ أن الأسلوب الفنى عنده كان فى حاجة إلى مزيد من الصقل والاهتمام؛ لأن الشعراء آنذاك لم يسمحوا كثيرا للخيـال بـأن يوشى التعبير بألوان من الصور الزاهية، والخيالات الرائعة والعواطف الصادقة .

ومن شعراء العصر الحديث أبوالقاسم الشابى الذى تحـدث عـن رفض الشعوب للغزاة المحتلين قائلا :

إذا الشـعبُ يومـا أراد الحيـاة ∴ فلابـد أن يسـتجيب القـدرْ
ولابـد لليـل أن ينجلـى ∴ ولابـد للقيـد أن ينكسـر
ولـم يعانقـه شـوق الحيـاة ∴ تبخـر فـى جوهـا واندثر

وقائلا فى أنشودة الجبّار :

سأعيش رغم الـداء والأعـداء ∴ كالنسر فوق القمـة الشـماء

وفى الكلام عن شعراء محافظة الشرقية بمصر ذكرت مجموعة كبيرة ممن تغنوا بأرض الواقع، وعاشوا فى أحضان الطبيعة الساحرة، وجاء الحديث عنهم ضمن موضوع بعنوان : "شعر الفصحى بين التقليد والتجديد"، ولا تتسع هذه المقدمة الموجزة إلا لهذه الإشارة الخاطفة.

وفى أدب المقالة ذكرت علمين عالمين من أدباء القرن العشرين أولهما ، مصطفى صادق الرافعى ، الذى قال فى مطلع كتابه النقدى (على السفود) :

وللسفودِ نارٌ لو تلقّتْ ∴ بجاحمها حديدًا ظُنَّ شَحْمًا
ويشوى الصخرَ يتركه رَمَادًا ∴ فكيف وقد رميتُك فيه لَحْمًا

وثانيهما ، على أدهم ، الأديب الذى عشق مصر ، وأجاد التعبير عنها .

ونصل إلى موضوعين عن الفن القصصى الأول هو: الطبيعة المصرية فى رواية (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل .

والثانى عن الخيال العلمى فى الرواية والقصة القصيرة ، وأعتقد أن الكتاب لم يلتئم شمله ، فلا زال فى حاجة إلى مجموعة من الموضوعات أراها جديرة بأن تكون ضميمة إلى ما ذكرناه .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ،

الأستاذ الدكتور

السيد محمد الديب

وكيل كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالزقازيق

الأربعاء ١٨ من شوال سنة ١٤٢٥هـ
أول ديسمبر سنة ٢٠٠٤م

صوت القبيلة فى شعر الأعشى

صاحبنا فى هذه الصفحات هو الأعشى [١] الكبير، أبو بصير (ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل، الشاعر الذى عده ابن سلام الجمحى من الطبقة الأولى) والذى عرف بصناجة العرب؛ لجودة شعره، ولما يحدثه فى الآذان من دوى ورنين، أو لأنه كان يعزف على آلة تسمى (الصَّنْج) حتى ليخيل إليك إذا أنشدته أن آخر ينشد معك، وكان راوية لشعر خاله (المسيب بن علس).

وقد عرف الأعشى بأنه شاعر الخمر والنساء، وفى سبيلهما ارتحل إلى كثير من البلدان؛ ليمدح الحكام والأمراء وذوى النفوذ والسلطان، ولم يكن له إلا قليل من الذكر خارج نطاق المدح والغزل وشعر الخمر، وأغلب هذا الخروج كان فى شعر الهجاء الذى اقتصر على خصوم قومه، ولم تطالع عيناى دوافع أهل الكوفة لتقديمه على غيره فى المراحل التالية لعصره.

أما العبارة النقدية المنتشرة فلعلها تحسم قضية تقديمه على غيره، أو تقديم غيره عليه، وهى من مرويات ابن سلام، إذ سأل أبو خليفة يونس النحوى: من أشعر الناس ؟ قال: لا أومئ إلى رجل بعينه، ولكنى أقول: امرؤ القيس إذ غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب[٢].

---

(١) الأعشى : من لا يبصر فى الليل، ويبصر فى النهار، وقد عمى أعشانا فى أواخر عمره، والذين لقبوا بهذا اللقب كثيرون، أحصى منهم الآمدى سبعة عشر بين جاهلى وإسلامى، ويتميزون بنسبتهم إلى قبائلهم.

(٢) الأغانى طبعة دار الكتب المصرية جـ٩ صـ١٠٨.

وهى مقولة لا ينبغى الوقوف عندها ، أو الاكتفاء بها، وليست إلا مسوغا أو دليلا يحتج به ابن سلام فى تقديمه لهؤلاء الأربعة الذين جعلهم عماد الطبقة الأولى للشعراء الجاهليين .

ولد أعشى قيس فى قرية منفوحة باليمامة، وتوفى بها حوالى سنة سبع من الهجرة، وكان شعره يمثل قومه من بنى سعد بن ضبيعة، ثم بنى قيس بن ثعلبة، ويعبر عن أل بكر بن وائل جميعا. واشتهر والده بلقب (قتيل الجوع) ولذلك قصة حيث دخل غارا، ثم سد عليه فمات بداخله جوعا.

وكان (يحيى بن متى) زاوية له، وقيل إنه أعد قصيدة فى مدح الرسول ﷺ بالمدينة، ولم يصل إليه ، فقد حذرته قريش من الإسلام إذ قيل له: إنه سيحجبه عن الخمر والقمار والنساء، والقصيدة موجودة فى ديوانه ، وفى بعض كتب التراث القديم إلا أن الشك قليا لا يقل عن الشك فى غيرها من بعض قصائد الأعشى؛ لاعتبارات كثيرة، فقد كان الرجل شاعرا جوالا يمدح الرجال ويتغزل فى النساء، ويستمع للقيان فى حانات الخمر، ويذكر الكثير من القصص والروايات على مسامع القبائل العربية والفارسية، حتى قيل إنه أول من تكسب بشعره، فحط كثيرا من قدره، وقد وفد على ملوك فارس ، والحيرة ، وغسان ، وكندة ، واليمن ، ونجران ، وعمان ، وبلاد الشام .

واتسعت الرؤية لشعر الأعشى من منظور الغزل الذى كان يفيض بالشهوة العارمة ، ولم تمح من ذاكرة الرواة ما قاله من نماذج

للشعر المكشوف الذى لم يقله امرؤ القيس أو غيره من الشعراء فى الجاهلية وبعدها، وقد تغزل فى ثلاث فيان هن قتيلة ، وجبيرة، وهريرة، وفى هذه الأخيرة ابتدأ قصيدته التى كانت واحدة من القصائد العشرة المشهورة وأولها:

ودع هريرة إن الركب مرتحلُ ∴ وهل تطيق وداعا أيها الرجلُ

غراء فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها ∴ تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحلُ[1]

كأن مشيتها من بيت جارتها ∴ مرُّ السحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وفيها :

علقتها عرضا، وعلقت رجلا ∴ غيرى وعُلِّق أخرى غيرها الرجل

وعُلِّقَتْهُ فتاةٌ ما يحاولها ∴ من أهلها مَيِّتٌ يهذى بها وَهِلُ[2]

وعلقتنى أُخَيْرَى ما تلائمنى ∴ فاجتمعَ الحب حبا كله تبل

فكلنا مغرم يهذى بصاحبه ∴ ناءٍ ودانٍ ومخبولٌ ومُحْتبلُ[3]

قالت هريرة لما جئتُ زائرها ∴ ويلى عليك وويلى منك يا رجل[4]

ومن غزله المكشوف قوله :

فلما التقينا على بابها ∴ ومَدَّتْ إلى بأسبابها

---

(١) العوارض : ما يبدو من الأسنان عند الابتسام ، الوجى : الذى حفى قدمه .
(٢) وهل: الذى ذهب عقله .
(٣) احتبل الرجل الصيد : أخذه فى الحبالة .
(٤) الديوان (ديوان الأعشى الكبير) شرح الدكتور محمد محمد حسين طبع مؤسسة الرسالة ص١٠٥ وما بعدها .

بـــذلنا لهـــا حكمهـــا عنـــدنا ∴ وجادت بحكمـــى لأُهَـــى بهـــا
فطـــورا تكـــون مِهـــادا لنـــا ∴ وطورا أكـــون فيُعْلَـــى بهـــا[1]

وكان الأعشى واحداً من أبرز شعراء الخمر فى عصره ، وقـد شربها، وتغنى بها، ومهد السبيل لمن جاء بعده للحـديث عنهـا مثـل الأخطل وأبى نواس وغيرهما، قال :

وكـــأسٍ شـــربت علـــى لـــذة ∴ وأخرى تـــداويت منهـــا بهـــا
لكى يعلمَ النـــاسُ أنـــى امـــرؤ ∴ أتيت المعيشـــة مـــن بابهـــا[2]

وكان حبه للخمر مشهورا فى حياته وبعد مماته، فحدث محمد بن إدريس بن سليمان بن أبى حفصة، قال: قبره بمنفوحة، وأنا رأيته، فإذا أراد الفتيان أن يشربوا خرجوا إلى قبره فكتربوا عنده، وصبوا عنـده فضلات الأقداح[3].

وفى رواية أخرى ذكرها على بن سليمان النوفلى عن أبيه، قال: أتيت اليمامة والياً عليها، فمررت بمنفوحة وهى منزل الأعشى التـى يقول فيها :

..... ∴ بشط منفوحةَ فالحاجرِ

فقلت : أهذه قرية الأعشى؟ قالوا: نعم، فقلت : أين منزله؟ قالوا: ذاك وأشاروا إليه، فقلت: فأين قبره؟ قالوا: بفناء بيتـه، فعـدلت إليـه

---

(١) الديوان ص٢٢١ .
(٢) الديوان ص٢٢٢ .
(٣) الأغانى جـ٩ صـ١٢٦ .

بالجبل فانتهيت إلى قبره فإذا هو رطب، فقلت: مالي أراه رطبا؟ فقالوا إن الفتيان يتادمونه ، فيجعلون قبره مجلس رجل منهم ، فإذا صار إليه القدح صبوه عليه لقوله : أرجع إلى الهامة فأشبع من الأطيبين الزنا والخمر[١].

وكان شعره في الخمر مغايرا لشعر الجاهليين ــ كما قال الدكتور محمد حسين حيث تشيع فيه الحياة، ويشف عن الصلة العاطفية التي تقوم بين الشاعر وبين موضوعه، وقال : "والواقع أن الأعشى كان مفتونا بالخمر وبمجالسها لا يعدل بها شيئا ، ولا يستطيع لها فراقاً ، وقال :

أطال الأعشى في شعر الخمر ، وفصل، واقتدن في وصف بيوتها، وتصوير أثرها في النفس ، وقدم لنا صورا دقيقة حية لمجالسها في بيئات منوعة، متباينة، بعضها حضري مترف، وبعضها ريفي ساذج، واتسمت خمرياته بالسهولة والسلاسة والخلاعة، وتدفق العاطفة، وكان موفقا غاية التوفيق في اختيار القوالب الشعرية التي تناسب هذا الفن[٢].

ثم ذكر بعض صوره الخمرية التي تأثر بها الأخطل وأبونواس.

والواقع إنني لا أحب الإطالة في الحديث عن شعر الخمر والنساء عند أبي بصير، إذ ليس ذلك سوى مقدمة لما نحن مشغولون به

---

(١) الأغاني جـ٩ صـ١٢٦ .
(٢) الديوان ــ المقدمة ص٣٢ .

وعازمون عليه، فهذان الغرضان لا علاقة لهما مباشرة بالشعر القبلي الذى كان صوتا قويا عند معظم الجاهليين، وللأعشى غرضان آخران يتصلان من جوانب أخرى بالهموم المتعددة لبكر بن وائل ولقومه من بنى قيس بن ثعلبة فيتحاز لقومه ويمدحهم ، ويهجو خصومهم ويهاجم أعداءهم .

أما الفخر فليس له من هدف سوى الإشادة بقومه وتسجيل انتصاراتهم والإشادة بأبطالهم، والتنديد بخصومهم، وتهديد الفرس، وفض المنازعات بين أبناء القبيلة.

فالأعشى شاعر متعدد الجوانب ، جهير الصوت ، كثير الفنون، تجاوز حدود آل بكر بن وائل، فمدح وهجا، وأحب الخمر ، وتغزل بالنساء ، ودخل شعره ساحة الغناء فشدت القيان بقصائده ومقطوعاته ، فهو شاعر ذاتى أحب نفسه، وأقبل على كثير من المتع الحسية، فنهل منها، وتحدث عنها، وكان هذا الجانب معروفا فى شخصيته فلا يكاد يذكره أحد مهموما بتبعات قومه باستثناء بعض الأبيات فى حروب العرب مع الفرس، والذى يتفحص ديوانه يراه على عكس ما أشيع عنه واشتهر به ، ويبدو أن ما فى شعره من غزل مكشوف، وتعلق سافر بالخمر صرف الكثيرين عنه، معتقدين أن ما قاله أقل كثيرا مما نسب إليه، أما الجوانب الأخرى فى ديوانه فبقيت مطمورة لم تلق عناية واهتماما، وهذه بعض الجوانب التى تدفع أبابصير إلى مصاف الشعراء الذين يشاركون فى شؤون القبيلة، ويسجلون انتصاراتها ويهاجمون

أعداءها، ويؤرخون لوقائعها، ويشيدون بأبطالها ، ويتندون بخصومها ويرفعون صوتها فى الحواضر والبوادى .

أولا : الفخر القبلى :

عاش الأعشى حياته بطريقته ومذهبه فى الحياة فليس هو الشاعر الذى يتحدث بلسان الجماعة، ويفتخر بقومه على طريقة شاعر الفخر القبلى عمرو بن كلثوم التغلبى، وليس هو الشاعر الذى يقدم شخصيته الفردية ويعتد بها على مذهب طرفة بن العبد، أو يحتمى بها متجاهلا أو معاديا للقبيلة كالشعراء الصعاليك، أو متجاوبا معها أملا فى تحقيق هدفه وإثبات ذاته مستعملا الضمير المفرد كما هو الحال فى شعر راعى الإبل عنترة بن شداد، ولكنه الشاعر الذى يعلو عنده صوت القبيلة فيشارك فى شؤونها ويخلص لها، ويسجل انتصاراتها، ويندد بخصومها دون أن تذوب شخصيته تماما، أى أنه يجمع بين الأصوات المتعددة التى تمثله وتمثل القبيلة فى آن واحد ، فقد عاش حياته طولا وعرضا متنقلا بين المدح والهجاء والخمر والنساء حتى ظنه الناس من طائفة امرئ القيس ، ومن أصحاب النزعة الأحادية والمذاهب الفردية فى الشعر والحياة، ولكن ذلك لم يكن إلا جزءا من الصورة، وتظهر بقاياها فى تعلقه بقبيلته، وحديثه عن قومه، وأن حياته ورحلاته وانغماسه فى شهواته وشربه للخمر وسماعه للقيان لم يصرفه عن المشاركة فى شؤون بكر وبطونها جميعا ، فيسجل الانتصارات، ويهاجم الأعداء ، ويؤرخ للوقائع، ويشيد بالأبطال ، ويهجو الخصوم والأعداء، وهو كذلك ليس زهير بن أبى سلمى الداعى إلى السلام ولا

امرأ القيس فى غزله، وانصرافه إلى جبال اليمن أو ارتحاله إلى القيصر فى أنقرة من أجل أهداف قبيلته، وإنما هو الأعشى الكبير المتفرد فى غزله وولعه بالخمر والغناء ، وسعيه إلى المدح للتكسب، وحرصه على القبيلة، ورفع صوتها عاليا مدويا، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحته الفردية عندما تشتعل نيران الحرب مع الفرس، أو عندما تتأجج بين أهله الأبعدين من بنى بكر ، كأن يشيد ببنى شيبان فى يوم ذى قار ، فإذا نشب خلاف بينهم مع قومه (قيس بن ثعلبة) فإنه ينحاز لقومه مع أنهم جميعا بكريون .

ويخاطب مفتخرا فى المعلقة — يزيد بن مسهر — الشيبانى فيقول إنى من يتخيله سيحمل رسالة إليه :

أبلغ يزيدَ بنى شيبانَ مألكةً ∴ أبا ثُبيت أما تنفك تأتكل[1]

ألست منتهيا عن نحت أثلتنا ∴ ولستَ ضائرها ما أطّت الإبل[2]

تُغرى بنا رهط مسعود وإخوته ∴ عند اللقاء فتُردى ثم تعتزل[3]

لأعرفنك إن جد النفير بنا ∴ وشبت الحرب بالطُوّاف واحتملوا[4]

كناطحٍ صخرةً يوما ليفلقها ∴ فلم يَضِرْها وأوهى قرنه الوعِل[5]

---

(١) مألكة : رسالة، تأتكل: تسعى بالشر والفساد .
(٢) الأثلة: شجرة ، أطت الإبل: أنت تعبا .
(٣) أردى: أوقعه فى الردى والهلاك .
(٤) النفير : القوم ينفرون معك للقتال ، الطواف: الذين يطوفون .
(٥) الديوان ص١١١ .

يكلف الشاعر من يحمل عنه رسالة إلى يزيد بن شيبان يحذره من سعيه بالشر، وغليان صدره بالكراهية، وكيف لا يتوقف عن الحديث المسيئ عنهم والنحت فى صخرتهم وشجرة كيانهم وهو يعلم أنه لن يضيرهم أبدا مهما أغرى بهم رهط مسعود وإخوته الذين لا يثبتون فى اللقاء فيهلكون فى الحرب، ويتخلى عنهم كأنه لم يفعل شيئا، أو يرتكب إثماً، ولسوف يعرفه الشاعر عندما يشتد أوار الحرب، وينتشر المقاتلون حاملين السبايا أنه ليس إلا وعلا ينطح صخرة محاولاً كسرها فلم يؤثر فيها، وإنما أضعف قرنه بلا نتيجة، وقال :

سائل بنى أسدٍ عنا فقد علموا ∴ أن سوف يأتيك من أنبائنا شكل[١]

وأسأل قُشيرا وعبدالله كلهم ∴ واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل[٢]

إنا نقاتلهم حتى نقتلهم ∴ عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم ∴ إنا لأمثالكم يا قومنا قُتُلُ

حتى يظل عميد القوم متكئا ∴ يدفع بالراح عنه نسوة عجل[٣]

أصابه هندوانى فأقصده ∴ أو ذابلٌ من رماح الخط معتدل[٤]

قد نخضب العير من مكنون فائله ∴ وقد يشيط على أرماحنا البطل[٥]

---

(١) أسد : أى أسد بن ربيعة، شكل : أبناء ، خبر بعد خبر .

(٢) قشير : أى قشير بن كعب بن ربيعة .

(٣) عميد القوم : سيدهم ، الراح : جمع راحة وهى بطن اليد، عجل: جمع عجول وهى المرأة الثكلى .

(٤) هندوانى : سيف مصنوع فى الهند، أقصده: أصابه فلم يخطئه، ذابل : رمح الخط: بلد بالبحرين مشهورة بصناعة الرماح الجيدة .

(٥) العير : بمعنى السيد، الفائل : عرق يجرى من الجوف إلى الفخذ، ومكنون الفائل : الدم . يشيط: يهلك ويحترق .

هل تنتهون ؟ ولا ينهى ذوى شَـطَط ∴ كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل(١)

ويفتخر فى الأبيات السابقة بالقبائل التى هزموها، فيـذكر منهـا (أسد بن ربيعة) و(قشير بن كعب بن ربيعة) ويحثه على سؤال هـؤلاء وغيرهم، ليخبروه بما كان عليه قوم الشاعر فى القتال ، وقـال: إننـا عندما تلقاهم ونقاتلهم نقضى عليهم بما جنوه على أنفسهم ، وقد زعمتم أننا لا نقدر على قتالكم، ولكننا أندادٌ لكم، ولا نعجز عـنكم، ويتهـاوى سيدكم ، ويسقط على يديه ، وقد هلك الرجال حوله، فلا يوجـد معـه سوى النساء اللاتى يدافعن عنه بأيديهن، وقد أصابه سيف اسال دمه أو رمح أهلكه، وإننا أقدر الناس على تحديد موضع الطعن مـن الجسـم، فنصيب سيد القوم فى العرق الذى يجرى بالدم من الجوف إلى الفخذ ، ويهلك على أرماحنا البطل من الخصوم والأعداء، فانتهوا أيها القـوم، ولن تنتهوا لما أنتم فيه من بغى كالطعنة العميقة التى تغور فيها الفتائل والزيت.

وهذه الأبيات الأخيرة لا تختلف فى مضمونها العام عـن أبيـات مشابهة تضمنتها معلقة عمرو بن كلثوم وبعض الأبيـات مـن معلقـة عنترة التى تخلى فيها عن فرديته وانحاز إلى الحديث بلسان القبيلة .

ويفتخر شاعرنا بأبناء قومه قيس بن ثعلبة فى واحدة من القصائد الخالصة للفخر بعد تجاوز الأبيات الغزلية التى استهل بها القصيدة، إذ

(١) الشطط : الغلو .

لديه الكثير من المجد الذى يفتخر به فى أبناء قومه العصبة القيسية الشم الأنوف الذين يبذلون الجهد والمال فى سبيل كرامتهم ، ويمشون بعزة وكرامة، ويرتدون أفضل الثياب، ويشربون — فى زمن القحط والغلاء — خالص الخمر ، وينفقون كل غال ورخيص، ويضمنون لقومهم — أثناء الحرب الحديث الحسن والذكر الطيب، وأن فيهم من الفرسان الكثيرين الحاذقين فى الحرب الذين يصيحون فرحا بما يحققونه من إصابات قاتلة، قال :

إنى امرؤ من عصبة قيسيةٍ ∴ شُمِّ الأنوف غرانق أحْشَادِ[١]
الواطئين على صدور نعالهم ∴ يمشون فى الدَّفَنِىِّ والأبْرادِ[٢]
والشاربين إذا الذوارعُ غُوليت ∴ صفوَ الفضالِ بطارفٍ وتلادِ[٣]
والضامنين بقومهم يوم الوَغَى ∴ للحمد يومَ تنازُلٍ وطِرادِ[٤]
كم فيهم من فارس يوم الوغى ∴ ثَقْفِ اليدين يَهِلُّ بالإقصادِ[٥]

---

(١) غرانق : جمع غرنوق وهو الشاب الأبيض الجميل ، الأحشاد: جمع حشد (فتح فكسر) وهو من لا يدع عند نفسه شيئا من النصرة والجهد والمال إلا بذله .

(٢) الدفنى: ثوب مخطط، الأبراد: جمع برد وهو كساء مخطط يلتحف به .

(٣) الذوارع: جمع ذروع وهو البحير، الطارف: المستحدث ، التلاد: الموروث القديم .

(٤) طراد : مطاردة .

(٥) ثقف : حاذق، يهل بالإقصاد: يفرح بإصابة السهم لهدفه، والأبيات من القصيدة رقم ١٦ .

والفخر فى الأبيات متنوع وليس كسابقه فهو يجمع بين الحديث عن عراقة الأصل وكرم المحتد، وارتداء أفخر الثياب، وشجاعة الأبطال الذين يحققون أعظم الانتصارات .

وتحدث عن يوم ذى قار[١] فى عدة قصائد، فهدد الفرس، واستفز قومه قبل الموقعة فى واحدة، وامتدح بنى شيبان بن ثعلبة فى أخرى، وذكر رحلة قيس بن مسعود إلى كسرى بعد اللقاء فى واحدة، افتخر باليوم فى بيتين، ثم افتخر فى قصيدة أخرى من خمسة وعشرين بيتا وصف فيها اللقاء وصفا متميزا أشاد فيه برجال بكر بن وائل فى حروبهم يوم ذى قار ، قال :

وجند كسرى غداة الجنـ ـو صبحهم ∴ مناكتائب تزجى الموت فانصرفوا[٢]
جحاجح وبنو ملك غطارفة ∴ من الأعاجم فى آذانها النطف[٣]
إذا أمالوا إلى النشاب أيديهم ∴ ملتابيبيض ظل الهام يختطف[٤]
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم ∴ حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف
لو أن كل معد كان شاركنا ∴ فى يوم ذى قار ما آخطاهم الشرف[٥]
لما أتونا كأن الليل يقدمهم ∴ مطبق الأرض يغشاها بهم سدف[٦]

---

(١) موضع قريب من الكوفة ، جرت به موقعة مشهورة بين الفرس وبكر بن وائل ، وكانت ـ فى بعض الأقوال ـ فى بداية بعثة الرسول ـ ﷺ ـ .
(٢) الجنو : منعرج الوادى ، تزجى: تدفع .
(٣) جحاجح: الأسياد المسارعون إلى المكارم، ومسلتهم الغطارفة ، النطف: اللآلئ .
(٤) النشاب : السهام .
(٥) معد بن عدنان : جد عرب الشمال من قبائل ربيعة ومضر .
(٦) مطبق الأرض : معمّيا ، السدف : الظلمة .

وظعننا خلفنا كحلا مدامعها ∴ أكبادها وجف مما ترى تجف[١]
حواسرٌ عن خدود عاينت عبرا ∴ ولاحها وعلاها غبرة كسفُ[٢]
من كل مرجانةٍ في البحر أخرجها ∴ غواصُها ووقاها طينها الصدف[٣]

وقد انتهت القصيدة عند هذه الأبيات التي جاءت للحديث عن يوم ذي قار ، حيث تحقق النصر لقبيلة بكر بن وائل على جيوش الفرس، ذلك الشرف الذي لو وزع على قبائل معد لكفاهم جميعاً .

وكانت النساء واقفات خلف الصفوف ينظرن في خوف وهلع، والدموع تجري على الخدود التي غيرها الحزن وكستها الغبرة المظلمة لكنهن كن مشرفات وكأن كل واحدة منهن مرجانة خرجت لتوها من أعماق البحر ، مصانة بالأصداف .

ولم يطل نفس الشاعر في الحديث عن هذا اليوم مع أنه افتخر به في عدة قصائد أخرى، ولكنه لم يتناول وصف الحرب بمثل هذه الأبيات ، ولم يكن الأعشى من الشعراء الذين يحسنون وصف المعارك، وإذا ما تحدث عن هذا الجانب جاء حديثه موجزا غير واف، فلم يكن فارسا يشارك في الحرب، أو بطلا يحسن المبارزة، واقصى ما يستطيعه في هذا الجانب أن يفتخر بالنصر، ويكرر هذا الفخر بأكثر

---

(١) ظعننا: زوجاتنا، مدامع: عيون، وجف: خافقة (المفرد واجف) .
(٢) حواسر : مزجيات للنقاب ، عبر: دموع، الغبرة: لون الغبار، كسف: جمع كاسف وهو المهموم .
(٣) مرجانة: امرأة تشبه المرجانة،الصدف: جمع صدفة. وانظر القصيدة رقم٦٢

من صورة خاصة إذا كان على الفرس، وفى نصر عزيز انتزعه العرب من أنيابهم.

لقد كانت الحرب موجهة لا إلى بنى شيبان ولا إلى آل بكر بن وائل فحسب، وإنما إلى القبائل العربية فى المنطقة كلها، وقد لحقت الهزيمة بالفرس، فعمت الفرحة البكريين جميعا ومن انضم إليهم، وكان أن سجل الأعشى هذا النصر فى عدة قصائد تسبق اللقاء ، أو تمهد له، أو تتحدث عنه، وإذا كان التقى بكسرى ونال عطاءه لكن المصلحة القومية فوق كل اعتبار ، وحبه لقومه ليس محلا للنقاش .

ثانيا : مدح رجال قبيلته ، والانحياز لقومه من بنى قيس بن ثعلبة:

كان هوذة بن على الحنفى ملكا على قومه (حنيفة)، وهم فرع من فروع بكر بن وائل، وكان على علاقة حميمة بكسرى، مما جعل قومه فى أمان من هجمات الفرس ، وقد مدحه الأعشى بأربع قصائد منها الرائية التى يبدو أن الأعشى قد هتف بها فى آخر عمره، وأشار فيها إلى ضياع بصره مما يجعلها إحدى المصادر التاريخية لحياته، وفيها يقول[*] :

إلى ملك كهلال السما ... ء أزكى وفاء ومجدا وخيرا[١]
طويل النجاد رفيع العما ... د يحمى المضاف ويعطى الفقيرا[٢]

(*) من القصيدة رقم ١٢ ص١٤٧ .
(١) وخيرا : كرما .
(٢) طويل النجاد : طويل حمائل السيف (كناية عن طول الممدوح) ، رفيع العماد: طويل عمود الخباء (كناية عن ارتفاعه) ، المضاف : المستجير .

أهـــوذ وأنـــت امـــرؤ ماجـــدٌ ∴ وبحرك فى الناس يعلو البحورا
منَنت علـــى العطـــاء الجزيـــل ∴ وقد قصر الضن متى كثيـــرا(١)
فـــأهلى فـــداؤك يـــوم الجفـــا ∴ رإذ ترك القيد خطوى قصـــيرا(٢)
وأهلـــى فـــداؤك عنـــد النـــزال ∴ إذا كان دعوى الرجال الكريـــرا(٣)

والأبيات واضحة المعنى فى المدح، أما يوم الجفار فقد كان واحدا من الأيام التى كانت بين بكر وتميم ، وقد غزا فيه هوذة تميما، واعتذر الشاعر عن غيابه فى هذا اليوم بسبب ضعفه وعجزه عن متابعة الممدوح .

وتتواصل الأبيات عن معارك (هوذة) وانتصاراته على (تميم)، قال:

فمسائل تميمـــا وعنـــدى البيـــانُ ∴ وإن تكتموا تجـــدونى خبيـــرا
تمنـــوْك بالغيـــب مـــا يفتنـــو ∴ ن بينون فى كل ماء جـــديرا(٤)
فـــأخطرت أهلـــك عـــن أهلهـــم ∴ فصادفَ قِدْحُك فـــوزا يســـيرا
ولمـــا لُقيـــت مـــع المخطـــرينَ ∴ وجدتَ الإلـــه علـــيهم قـــديرا
وأعـــددت للحـــرب أوزارهـــا ∴ رماحا طوالا وخيلا ذُكُـــورا(٥)

---

(١) الضن : البخل .
(٢) القيد : العمى ، فجعل خطوه قصيرا يكاد لا يبرح منزله .
(٣) الكرير : صوت فى الصدر مثل صوت المختنق .
(٤) الجدير : جمع جديرة وهى الحظيرة .
(٥) أوزار الحرب : عدتها .

ومـــن نســـج داود موضـــونة ∴ تساق مع الحي عيرا فعيـــرا[١]
اذا ازدحمت في المكان المضيـــ ∴ ـق حتّ التزاحم منها القتيرا[٢]
لهـــا جـــرسٌ كحفيـــف الحصـــا ∴ د صادف بالليل ريحا دبـــورا[٣]

إن ما ألحقه (هوذة) بتميم معروف، وقد كانوا يجهـــزون أنفســـهم للقائه مع جيشه، ويأخذون الأهبة والاستعداد ، فلما التقى بهـــم وجـــد النصر عليهم أيسر ما يكون حيث أعد نفسه لقتالهم بالدروع المنسوجة حيث تحتك مساميرها التي تتشابك بها عند ازدحام الأمكنة ، وتنبعـــث منها الأصوات كحفيف الحصاد عندما تهزه الريح في سكون الليل.

وتتواصل الأبيات عن أبطال اللقاء والجيـــاد المعـــدة بـــالأموال الكثيرة، وقد بدا عليها الكلال من كثرة الغارات على الأعداء.

وهكذا بدا صوت الأعشى قويا ومجلجلا في هذه الرائية التي أشاد فيها بانتصار (هَوْذة) على تميم في معركة الجفار خاصة.

ولأبي بصير مجموعة من القصائد تتصل بمصالح قومـــه حيـــث يدعوهم لمحالفة قيس بن معد يكرب ؛ لأنه ملك قوي يحمي من يحـــل عليه لاجئا ، ويظلله بحمايته .

---

(١) درع موضونة: منسوجة بعضها على بعض، تساق: تحمل ويرسل بها .
(٢) حت : حك ، القتير: رءوس المسامير .
(٣) الجرس : صوتها حين يحتك بعضها ببعض . الحصاد: النبات الذي جـــف على سوقه، الدبور: الريح الغربية.

وهكذا ينهض شاعرنا بدور مهم وبارز فى توجيه قبيلته، إذا أنه اللسان الناطق بمطالبها، والزعيم الذى يوجه سياستها، ويسخر نفسه لخدمتها ورفع صوتها أمام الملوك وأصحاب النفوذ والسلطان، وله فى هذا اللون شعر كثير مدح به بعض الرجال من (بكر) ومن غيرها.

ونقرأ له من شعره ما يتدخل به أحيانا لفض النزاعات بين فروع بكر ، فيمدح بنى شيبان وهم من فروع (بكر)؛ ليسألهم فى يوم ذى قار، وعندما ينشب خلاف بينهم وبين قيس بن ثعلبة وهم قومه فإنه ينحاز لبنى ثعلبة أى أن العصبية لقومه الأقرب فالأقرب فوق كل اعتبار ، ولهذا تجاوز الخلاف الذى نشب بين بنى عبدان وقومه سعد بن ضبيعة، وحاول الصلح بينهم ، ورد على بنى عبدان وعلى شاعرهم جهنام(*) .

وتتجلى مظاهر الشعر القبلى فيما قاله بحق بنى جحدر بن قيس ابن ثعلبة، ويجمع فيه بين العنف واللين، والغضب والحنين ، والإباء والوفاء(**) .

فالعصبية عنده تتغير بتغير الظروف ، ويقدم الأقارب على الأباعد من القبيلة، فيبدأ بتذييل بنى سعد بن ضبيعة، ثم بنى قيس بن ثعلبة، ويعلو فيمثل بكر بن وائل جميعا، إلى أن يمثل العدنانية فى مواجهة اليمنية(١).

(*) القصيدة رقم ٣٨ .
(**) القصيدة رقم ٢٣ .
(١) انظر مقدمة الديوان ص٢٩ .

ونراه ملتزما بالأصول والتقاليد العربية فى عقابه لأبناء عمومته بنى عبدان بن سعد بن قيس بن ثعلبة، وإن كان قد تجاوز الرفق الذى ينبغى أن يكون بين أبناء العمومة ، ويناشدهم بحق القرابة ألا ينسوا ما كان لأهل الشاعر من أياد عليهم .

وفى واحدة من القصائد يدلف شاعرنا إلى غرضه بدون تقديم راغبا فى أن يسفر عتابه عن إطفاء نار الخلافات بين بنى عبدان بن سعد وبنى سعد بن ضبيعة قوم الأعشى، الذى قال :

يا لقيسٍ لِمـا لقينـا تَعَامَـا ∴ لِعَبْدٍ أعراضُنا أم عَلَـى مـا[1]
ليس عن بغضة حُـذافَ ولكـن ∴ كان جهلا بـذلكم وغُرامـا[2]
لم تطأكم يوما بظلم ولـم نهـ ∴ ـتك حجابا ، ولم نُجِـلّ حرامـا
يا بنى المنذر بن عبدان والبطـ ∴ ـنة يوما قد تـأفِنُ الأحلامـا[3]
لِمَّ أمرتم عبـدا ليهجـو قومـا ∴ ظالميهم من غير جُرم كراما[4]

والعتاب واضح فى أن الأعشى وقومه لم ينهضوا بظلم يستحقون بسببه الهجاء من جهنام الذى أمره بنو عبدان بهجاء سعد بن ضبيعة . قوم الأعشى، حيث إن السنوات الأخيرة من حياته قد أقعدته عن الحركة الكثيرة، سعيا وراء التكسب بالمدح، وشراء الخمر، وسماع الغيان ، والغزل المكشوف بالنساء .

---

(١) العبد : المقصود الشاعر جهنام خصم الأعشى، وكان ابن أمة .
(٢) حذاف : ترخيم حذافة، وهو جد جهنام، العرام: الشراسة .
(٣) البطنة : الشره ، أفن الرجل: ضعف رأيه، الأحلام: العقول .
(٤) من القصيدة رقم ٣٨ .

ويلاحظ أن الرد على الشعراء الآخرين وعتابهم والرد على حججهم ليس منهجا للأعشى ، ولا يمثل طريقة أو أسلوباً قوياً عنده فى تعميق التجربة ومزج عناصرها، ولذلك اختار الأسلوب التقريرى فى المن على أبناء عمومته بنى عبدان وهو أسلوب فيه من الإفساد أكثر مما فيه من الإصلاح الذى يعد هدفا أساسيا فى هذا اللون الشعرى لتجميع ما تشتت من أبناء القبيلة .

ثالثا : هجاء الخصوم والأعداء :

لا يقتصر دور الشاعر فى القبيلة الجاهلية على مدح رجالها، والافتخار بأيامها، ولكنه يتجاوز هذا الدور إلى الدفاع عنها بهجاء الخصوم والأعداء، والرد على شعرائهم .

وقد أعطى الرسول ﷺ الإذن لشاعره حسان بن ثابت بالرد على شعراء قريش الذين كانوا يهجون الرسول ﷺ وأصحابه، وأحاله إلى أبى بكر الصديق؛ ليعرفه الأنساب ، وقال للرسول ﷺ إنه قادر بموهبته أن يسل الرسول ﷺ من قومه كما تسل الشعرة من العجين..

ونعود إلى الأعشى حيث كان واحدا من شعراء الجاهلية الذين يملكون ألسنة حدادا، لمواجهة الشاعر جهنام الذى كان يعادى الأعشى، ويتعصب لبنى عبدان، وبنى جحدر وهم جميعا من قيس بن ثعلبة ، ولم يسكت الأعشى، ولم يستسلم للشاعر المذكور، وكان لسانه ذربا وأسلوبه عنيفا فى مواجهة الفرس؛ لدورهم فى زرع الفتنة بين القبائل العربية.

وقد هتف ببعض القصائد قبل يوم ذى قار فأسهمت فـى إذكـاء القومية العربية، وقد استنفر رجال بكر بقصيدة وجهها إلى كسرى حين أراد منهم رهائن بسبب غارات بعض الأعراب على السـواد(*) فـى العراق مما كان واحدا من أسباب الحرب فى موقعة ذى قار ، قال:

من مبلغ كُسرى إذا مـا جـاءه ∴ عَنّى مَألُكٌ مُخَمَّشَاتٌ شُـرُدا(١)
أليـتُ لا تعطيـه مـن أبنائنـا ∴ رُهُنا فيفسدهم كن قـد أفسـدا
حتى يُفيدك مـن بنيـه رهينـةً ∴ نَعْشٌ ويرهَنَك السماكُ الفرقـدا(٢)
إلا كخارجـةَ المكلَّـفِ نفسـه ∴ وابْنَىْ قبيصةَ أن إغيبَ ويشهدا(٣)
أن يأتيك بـرُهْنِهم فهمـا إذَنْ ∴ جُهدَا وحُقّ لخائفٍ أن يُجْهدا(٤)

ويؤكد عدم الاستجابة لمطلب كسرى فى تقديم الرهائن له؛ حتـى لا يتعرضوا للتلف، وأن ذلك مستحيل، كما تقول فى الأمثلة إن طلبـه أبعد من نجوم السماء.

وقد جاءت الأبيات هنا فى صورة رفض لمطالب كسرى وهـى استهزاء به وبقوة جيشه، ولم يكن الهجاء ذمـا لصـفات جسـمانية أو

(*) السواد : الأرض الخضراء بالعراق المتاخمة لجزيرة العرب التـى لا زرع فيها ولا شجر (معجم البلدان جـ٣ صـ٢٧٢) .
(١) مألك : رسائل. مخمشات: معضبات، شردا: تأتى فى كل مكان لشهرتها.
(٢) نعش: سبعة كواكب، السماك: أحد السماكين النيرين، الفرقـد: واحـد مـن الفرقدين وهما المتقدمان من بنات نعش .
(٣) فى البيت تقديم وتأخير أى إلا كخارجة المكلف نفسه أن أغيب ويشهدوا بنى قبيصة أن يأتيك ، يشهد .
(٤) من القصيدة رقم ٣٤ .

خلقية فالهدف من الهجاء بث روح الحماسة في القبائل العربية قبل أن يكون موجها إلى كسرى ومطالبه الاستفزازية .

أما هجاء الأعشى لأبناء بكر والمنتسبين إليها فمختلف جدا، ولا يكاد يذكر البيت أو البيتين في الهجا حتى يتحول إلى الفخر بقومه باستثناء بعض المقطوعات القليلة العدد أو الأرجاز التي يتوجه بها في غمرة انفعاله وغضبه كتلك التي قالها في هجاء بني قميئة بن سعد بن مالك[1] وما عدا ذلك فإن هجاءه لبعض قومه يغلب عليه الفخر القبلي الذي يكون الباعث عليه هو حبه لقومه وأبناء عشيرته، وهذه مجموعة من الأبيات قالها الأعشى في جهنام شاعر بني عبدان ضمن قصيدة قصيرة قال فيها :

لقد سَفَرَتْ بنو عبدان بَيْنَا ∴ فما شكروا بلأمي والقِداح[2]
إليكم قبل تجهيز القوافي ∴ تزور المنجدين مع الرياح[3]
فما شتمي بمسنوت بزُبّد ∴ ولا عسل تصفقه براح[4]
ولكن ماء علقمةٍ وسَلْعٍ ∴ يُخاض عليه من عَلَق الذَبَّاح[5]
لأمك بالهجاء أحقُّ منا ∴ لما أبلتك من شَوْط الفِضاح[6]

---

(١) انظر كتابنا (دراسات في الأدب الجاهلي)ص١٥٧ .
(٢) سفر : خرج إلى السفر، بينا: فراقا، شكرت الدابة: سمنت، لأم: نسبة إلى اللوم ، القداح: مشاتمة أي لم يصيبوا شيئا من شتمي .
(٣) إليكم : تنحوا عني. القوافي: والمقصود الهجاء .
(٤) المسنوات: التمر ، صفق: الشراب حوله من إناء إلى إناء، الراح: الخمر .
(٥) العلقم :شديد المرارة ،السلع : نبات مر ساء،العلق:الدم، الذباح : الذباح سام.
(٦) الفضاح : الفضيحة .

ألســـنا المـــانعين إذا فزِعنـــا ∴ وزافتْ فيلقٌ قبـــل الصـــباح[١]
ســـوامَ الحـــى حتـــى نكتفيـــه ∴ وجُودٌ الخيل تعثرُ فى الرماح[٢]
ألســـنا المقتفـــين بمـــن أتانـــا ∴ إذا ما حارَدَتْ خُورُ اللقـــاح[٣]

وقد ذكر أن بنى عبدان قد سبوه وما جنوا بسببه وشـتمه خيـرا، وحذرهم من مغبة ذلك ، وإلا بعث بهجائهم إلى كل مكان، وكيف ظنوا شتمه ثمرا يزبد، أو عسلا ممزوجا بالخمر، ولكنه علقم وسام ومميت.

وكانت أم جهنام أحق منه بهذا الهجاء الذى تلقاه الأعشى؛ لأن مكان الشاعر مع قومه واضح معروف فى القتال، حين تتعشـر جيـاد الخيل، وفى الجدب حين تضن النوق بالألبان حيث يفرجون كل كـرب عندما يستحكم ويضيق .

وهكذا تحول الشاعر من هجاء جهنام إلى الفخر بقومه لحماستهم فى الحروب وكرمهم فى أيام القحط وغير ذلك من الخصال الحميدة.

ومن الملاحظ من خلال القراءة لشعر الأعشى أنه دائم الحـديث عن شؤون قبيلته، ولم ينصرف إلى ذاته إلا فى الأشعار التـى مـدح وتكسب بها، أو تغزل فيها، أو جعلها للحديث عن الخمر، وإذا ما اتجه إلى الهجاء كان بدافع العصبية القبلية، ولم تصرفه رحلاته عما ينبغـى

---

(١) زافت : تمايلت ، الفيلق: الجيش، الصباح: الغارة .
(٢) السوام: الإبل ، اكتفا الإبل : أغار عليها فذهب بها، جود الخيـل: المـربع منها، والأبيات من القصيدة رقم ٧٣ .
(٣) التقى به: أكرمه، حاردت: انقطع لبنها، خور : جمع خوارة وهـى الناقـة الغزيرة الإبل ، اللقاح: الإبل واحدتها لقوح .

للشاعر الجاهلى من المشاركة فى شؤون القبيلة، والإخلاص لقومه وعشيرته، وقد وظف الفنون الثلاثة المذكورة وهى الفخر والمدح والهجاء فى خدمة هذه القضايا التى جعلت منه صوتا مدويا فى اليمامة، وفى كل منطقة تقيم فيها عشائر بكر بن وائل .

ويعد شعره جزءا من الصورة الكاملة لعصره، لكنه لا يمثل شخصيته أو بمعنى أصح لا يمكن استخراج صورة دقيقة منه للشاعر الجاهلى .

ويبدو أن الأعشى فى سنواته الأخيرة قد اكتسى ثوبا قبليا لم يكن ميموسا به تماما فى المراحل الأولى من سنى حياته .

وقد شغل النقاد بديانته، وهل اعتنق النصرانية أم لم يعتنقها، ذلك لأن الأفكار والرؤى الدينية فى شعره كانت حجة لمن قال باعتناقه لها، أما إدراج اسمه ضمن كتاب شعراء النصرانية للويس شيخو فليس كافيا فما أكثر الشعراء الذين تظمهم شيخو فى سلك كتابه ولم تكن لهم علاقة متينة بهذه الديانة ، كما أنه لم يعتنق الإسلام، والقصيدة التى نسبت إليه فى مدح الرسول ﷺ مشكوك فيها، ولكنها تكشف ــ إذا صحت ــ عن التيار الذى انتماه، ويتمثل فى سعيه بالمدح للأعلام البارزة فى عصره بدءا من رجال قبيلته وامتدادا إلى الرسول ﷺ .

المذهب الفنى :

كتب الجمحى فى طبقاته عن الأعشى ومذهبه الشعرى ، فقال :

" أكثرهم عروضا، وأذهبهم فى فنون الشعر، وأكثرهم طويلة جيدة، وأكثرهم مدحا وهجاء وفخرا ووصفا، كل ذلك عنده وكان أول من سأل بشعره، ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه"(١).

تباين الألفاظ :

نعتقد أن التباين فى شعر الأعشى يعود بالدرجة الأولى إلى تنوع البيئة التى رضع منها لغته وثقافته، وقد عاش فى قلب الجزيرة العربية ونشأ فى اليمامة ، وكانت قبيلته من القبائل التى كثر فيها الشعراء ، فضلاً عن تنقلاته بين الأحياء العربية فى اليمن وفارس والعراق وبلاد الشام ، كما شارك فى حياة قبيلته مشاركة واضحة خاصة فى النصف الثانى من عمره ، ولم تظهر موهبته فى غرض واحد مثل أكثر الشعراء الجاهليين، ولكن ديوانه احتوى عدة أغراض سبق الحديث عن ثلاثة منها .

وقد اتخذ الدكتور طه حسين من السهولة واللين فى ألفاظه دليلا على الانتحال فى شعره، ولكن الرأى الراجح هو أن اتجاهه إلى الغناء واخضاع شعره لأصوات القيان جعل السهولة ضرورة فى الاتجاه إليها، وهى بالطبع تختلف عن الضعف والابتذال .

وقد حسم هذه الإشكالية الدكتور ناصر الدين الأسد ، فقال :

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى، تحقيق محمود شاكر ص٦٥ .

" ولا ريب أن عذوبة اللفظ وليونه يختلفان اختلافا بعيدا عن ضعفه وابتذاله فقد تروق الألفاظ وتعذب ، ويبقى الأسلوب مع ذلك قويا، والعبارة جزلة، والشعر رصينا بليغا. وإنما ينبغى أن يكون احتكامنا فى نسبة الشعر إلى الشاعر مرده إلى ظهور شخصية الشاعر الفنية فى هذا الشعر ، ووحدتها وانسجامها فى كل ما يقول، على أن تكون هذه الشخصية الفنية شاملة عامة تتسع للاختلافات الجزئية، مما يستدعيه اختلاف الموضوع، أو تغير الحالات النفسية عند الشاعر"(١).

لقد عاش أبو بصير فى مرحلة قريبة من العصر الإسلامى، ولم تكن حياته موغلة فى أعماق الجاهلية، وأسهمت تنقلاته الكثيرة وحبه للغناء فى أن يكون لنفسه مذهبا يكاد يكون خاصا به من حيث تنوع مستويات أسلوبه لتأثيره بتقدم المستوى الحضارى فى عصره، فهو يميل فى وصفه إلى المبالغة كشأن الشعراء الذين جاءوا بعده ، ومن ناحية أخرى مقدرته فى تصوير مشاعر المحبين وأحاسيسهم التى يحرصون على التعبير عنها بمقدرة فائقة .

وحدة المعنى :

والمراد منها تماسك الأبيات وترابطها حيث تأتى صياغة المعنى فى مجموعة من الأبيات تسهم كلها فى اكتمال الصورة الكلية، وربما كان ذلك من خلال التضمين الذى يعد فى الدراسة الموسيقية عيبا لكنه من وجهة أخرى يخدم المعنى الذى يكتمل فى بيت أو بيتين، أما تعدد

(١) الغيان والغناء فى العصر الجاهلى: الدكتور ناصر الدين الأسد ص٢٥٠ (دار المعارف بمصر) .

المعانى فى القصيدة الواحدة فلم يكن ذلك خاصا بالأعشى، وإنما كـان اتجاها عاما عند معظم الشعراء الجاهليين .

اللون القصصى:

لقد تميز شعره بهذا الأسلوب الذى يسوق الغزل ممثلا فى صورة حوار يحكى فيه قصته مع صاحبته على غرار ما كان يصوغ امـرؤ القيس حكاياته، ويذكر كيف أفلت من أعين الرقباء بكثير من التفاصيل، ثم يعود إلى ما كان يتحدث فيه، وقد كان هذا اللون محببا ومثيرا مـن الأعشى وظهر واضحا فيما بعد فى شعر عمر بن أبى ربيعة، وكـان هذا الاتجاه يرغم الشاعر على ممارسة نوع من الاستطراد الذى يبتعد فيه عن الموضوع الأساسى، ثم يعود إلى ما كان يتحدث فيـه، ولكـن هذا الاتجاه نراه فى شعر الغزل بصورة غير واضـحة فـى الفنـون الأخرى، وبخاصة أشعار الفخر والمدح والهجاء التـى كانـت منـاط الحديث فى هذه الصفحات .

أهم المصادر والمراجع

١. الأصول الفنية للشعر الجاهلى د. سعد إسماعيل شلبى ، دار غريب للطباعة.
٢. الأعلام : خير الدين الزركلى ــ دار العلم للملايين.
٣. الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ــ طبعة دار الكتب المصرية.
٤. أمراء الشعر ــ السيد فرج ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥. تاريخ الأدب العربى ــ كارل بروكلمان ــ دار المعارف بمصر.
٦. تاريخ الأدب العربى ــ أحمد حسن الزيات.
٧. تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى د. شوقى ضيف ــ دار المعارف بمصر.
٨. تاريخ الأدب العربى ــ عمر فروخ.
٩. دراسات فى الشعر الجاهلى ــ د. يوسف خليف ــ مكتبة غريب.
١٠. ديوان الأعشى الكبير ــ شرح د. محمد محمد حسين ــ مؤسسة الرسالة
١١. الشعر الجاهلى ــ د. إبراهيم عبدالرحمن مكتبة الشباب.
١٢. الشعر والشعراء ابن قتيبة ــ تحقيق أحمد محمد شاكر.
١٣. شعراء النصرانية ــ لويس شيخو مكتبة الآداب.
١٤. طبقات فحول الشعراء ــ محمد بن سلام الجمحى ــ تحقيق محمود محمد شاكر.
١٥. العمدة فى محاسن الشعر ونقده ــ ابن رشيق ــ دار الجيل.
١٦. فى الأدب الجاهلى د. طه حسين ــ دار المعارف بمصر.
١٧. الغيان والغناء فى العصر الجاهلى د. ناصر الدين الأسد ــ دار المعارف بمصر.
١٨. معجم البلدان ــ ياقوت الحموى ــ دار صادر بيروت.

شعر الزّهد عند أبى نواس

الزهد وأثره فى شعر أبى نواس :

النفس الإنسانية محيط زاخر عميق الغور . وقلّ ينظر إليه المشاهد فيخدع بالصفحة الأولى، ولا يدرى ما فى الأعماق، ولابد لمن يدرس شخصية تاريخية من أن يسبر غورها، ولا يكتفى بالنظرة العاجلة، إذ كثيراً ما تخدع عما وراءها.

فأبو نواس اشتهر بالخلاعة شهرة مستفيضة حتى أصبح علما على المجون ، وحتى استعاذ منه كثير من أرباب المثل العليا وذوى الحرص على سلامة الشخصية الإنسانية .

ومن يقرأ أخباره المستفيضة فى كتب التراث يؤمن بأن الرجل قد غمس فى المجون غمسا لم يدع فى جسمه نقطة خالية، ولكن الفاحص المتأمل يقرأ الديوان فيجد إلى تيار المجون الدافق شيئا مناقضا، يحس أثره الواضح فى الديوان، إذ أن فى ديوان أبى نواس بابا يسمى بالزهديات، وقد تبدو الزهديات غريبة على شاعر لابس الحياة، ودخل من أبوابها المستهترة، حتى لم يدع لنفسه المندفعة عتابا على النكول عن اللذة فى شتى ميادينها، فما بال هذه الزهديات تندفع من أعماق هذا المستهتر، أتكون خداعا مكشوفا يضحك به الشاعر على بعض الناس؟

إننا نعلم من حياته أنه لم يكن يبالى بسوء السمعة، بل ساعد على التهوين من مركزه الدينى مساعدة ينطق بها ديوانه، ولو لجأ إلى شىء من الخداع لمحا بعض ما يدل على هذا الاستهتار ، ولكنه باهى به ،

وكرر القول فيه حتى أصبح العلم الأول فـي هـذا المضـمار ، وإن فشعر الزهد في الديوان لم يكن خداعا، لكنه كان تعبيرا عن نفس ترفع إلى السماء في بعض اللحظات ثم تسف إلى الأرض فـي كثيـر مـن اللحظات، فتلج أبواب المجون ٠

فما الذي دعا الشاعر إلى هذا الزهد العازف ؟ لننظر في حياتـه التي دونها المؤرخون ، فقد نجد بعض الجواب ..

إن الذين تحدثوا عن نشأة أبي نواس يذكرون أنه حفـظ القـرآن الكريم وجوده، وفهم معانيه فهما دقيقا، كما يذكرون أنه قـرأ الحـديث ورواه، ووصل من دراسته إلى مراميه التشـريعية والخلقيـة، كمـا يذكرون أنه استمع في حلقات العلم إلى كبار الفقهاء والمحـدثين مـن أمثال حماد بن زيد وعبدالواحد بن زياد ومعتمر بن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان ، هذا الجلوس إلى العلماء يدل على أنـه فهـم أصـول الشريعة ، وألم بأخلاق الإسلام، وهذا ما يجعله مثقفا ثقافـة دينيـة لا مجال للشك فيها، نعم إن الذهبي قد قال في كتابه "ميزان الاعتدال فـي نقد الرجال" : "أبو نواس الشاعر المفلق هو الحسن بن هانئ ، شـعره في الذروة، ولكن فسقه ظاهر، وتهتكه واضح، فليس بأهل أن يـروى عنه إذ أن له رواية عن حماد بن سلمة وغيره" ٠

هذا الكلام يدل على أن أبا نواس لم يكن أهلا لروايـة الحـديث، وهذا ما نوافق عليه، لأن من أبرضح شروط الـراوي أن يكـون ثقـة صادقا حسن السمعة وهذا ما يتعذر إثباته لأبي نواس، ولكن عدم قبولنا

لرواياته فى الحديث لا يمنع أنه ألم بالحديث وذكره وعرف مراميه الخلقية، كما أنه حفظ القرآن الكريم، وجالس الكبار من العلماء ، وهذا كله لابد أن يترك أثره فى نفسه، وإن كان مرفوض للرواية عند المحدثين. هذا الأثر هو الذى جعل نفسه منقسمة قسمين، فهو يستجيب إلى دواعى الهبوط، فيقبل على اللذات، ويعكف على الملاهى، ويسجل ذلك كله فى أبيات يضج لها الفقهاء ويعدونها نموذجا للفسق، ولكن نفسه الثانية التى روت الحديث، وحفظت القرآن، وجالست العلماء تثور عليه فى بعض أوقات هدوئه فيحاسب نفسه، ويدرك أنه اقترف من الآثام ما تقشعر له الأبدان، وإذ ذاك يستيقظ ضميره. ويشعر بفداحة موقفه فيتعاظمه الخطب، ولابد أن يعبر عن نفسه فى ساعة الندم فيتجه إلى الله اتجاه العابد الضارع ، وينشد من الشعر ما يكون ذا صدق وانفعال، لأنه تنفيس عن إحساس مكظوم ، أراد الشاعر أن يعبر عنه فى ساعة الندم فقال ما قال .

فالذين يذهبون إلى أن أبا نواس قد راءى فى حديثه عن الزهد : يجهلون أن النفس الإنسانية لا تستقر على حال واحد ، فهى ذات صعود وهبوط وذات انحدار وارتقاء وإذا زادت أوقات الانحدار والسقوط عن أوقات الارتفاع والسمو فليس معنى ذلك أن الشاعر قد أغفل هذه الساعات التائبة النادمة ، ولكنه أراد أن ينطق بما يخفف عنه آلامه فلجأ إلى التوبة الصارخة والندم الضارع حين قال الزهديات عاكفا عن ملذات الحياة، ولا يمنع ذلك أن يعود إليها حين تنتهى ساعة الندم ، فينظم فى اللهو والمجون .

على أن أبا نواس لم يكن بدعا فى تقلبه بين الزهد والمجـون إذ كان له نظراء سلكوا مسلكه صعودا وانحدارا، وقد أشار الدكتور زكى مبارك إلى بعضهم حين قال فى فصل أدبى عقده تحت عنوان (كـلام الشعراء فى الزهد)[1] نذكر فى هذا الفصل أشياء من كلام الشعراء فى الزهد، ولا نقول الصوفية، فلهؤلاء وجهة غير وجهة أولئك ، إنما نريد الشعراء الذين عرفوا فى بعض أدوار حياتهم بـالمجون، ثـم غـزتهم المعانى الروحية فتقلتهم من حال إلى حال .

والماجنون حين يزهدون يصبح شعرهم قيثارة تندب بأوتار الندم والخوف، ويمسون وليم شمائل تنفح بالوداعة واللين، ومن أمثلة ذلـك حديث آدم بن عبدالعزيز الأموى ، وكان ماجنا منهمكا فى الشـراب، وكان يصحب يعقوب بن الربيع أخا الفضل بن الربيع، وكان يعقـوب أيضا من أهل الخلاعة والمجون ، ثم تاب آدم بن عبدالعزيز ونسـك، واتفق أن استأذن على يعقوب بن الربيع، وكان يشرب، فقال يعقوب:

أرفعوا الشراب فإن هذا قد تاب وأحسبه يكره أن يحضره! فرفع الشراب وأذن له، فلما دخل قال : إنى لأجد ريح يوسف؟ فقال يعقـوب : هو الذى وجدت، ولكنا ظننا أن يثقل عليك لتركك له قال: إى والله ، وإنه ليثقل على ذاك ..! .. قال : فهل قلت فى ذلك شيئا منذ تركتـه؟ قال: نعم! وأنشد :

ألا هل فتى عن شربها اليوم صـابر .·. ليجزيه عن صبره الغد قـادر

---

(١) " التصوف الإسلامى " جـ١ صـ٩٠ .

شربت فلما قيل ليس بنازعٍ ∴ نزعت وثوبي من أذى اللوم طاهر

على أننا حين نعرض لما قاله أبونواس فى الزهد نقف على أغراض شتى فى هذا المضمار :

١ – فأبو نواس قد أكثر من ذكر الموت إكثارا يدل على أنه دائم التذكر له، وشاعر حساس مثل أبى نواس لابد أن يتجه بعقله إلى التفكير فى مآله ، وبخاصة حين يعلم أنه أسرف فى الذنوب ، وأن الموت سيكون الباب الأول لحسابه على ما أسرف ، فهو إذن بالنسبة إليه خطر ماحق وشر عظيم — يفكر أبو نواس فى الوجوه القبيحة فيعلم أن مصيرها إلى الفناء ، كما يتأمل فى العقول الراجحة فيعلم أن رجحانها لا ينجيها من الهلاك ، فلابد من الرحيل إلى منزل نائى المحل سحيق ، إذ أن الناس من لدن آدم إلى عهد ابى نواس ما فيهم إلا هالك وابن هالك ، وما هذه الدنيا إلا عدو للإنسان، وإن قابلته بوجه صديق ، تلك خواطر حارة عبر عنها الشاعر الصادق حين قال:

أيا رب وجهٍ فى التراب عتيق ∴ ويا رب حسن فى التراب رقيق
ويا رب حزم فى التراب ونجدة ∴ ويا رب رأى فى التراب وثيق
أرى كل حى هالكا وابن هالك ∴ وذا نسب فى الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك ظاعن ∴ إلى منزل نائى المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ∴ له عن عدو فى ثياب صديق

والبيت الأخير قد ضرب مضرب المثل، ورواه الناس فى مجـــال الاستشهاد حتى قال المأمون فى بعض ما قال: لو سئلت الـــدنيا عـــن نفسها فنطقت لما وصفت نفسها كما وصفها أبو نواس فى قوله:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّـــفت ∴ له عن عدو فى ثياب صـــديق

وإذا كان أبو العتاهية قد أكثر من الموت فى أبيات سهلة سلسة يفيمها العامة للوهلة الأولى، ليسر مأخذها ووضوح أسلوبها، فإن أبا نواس قد جاراه فى هذه المضمار فى أكثر ما قال عن الموت . وتعليل هذه السهولة واضح، لأن الذى ينظم فى الموت يعمد إلى الحقائق الواضحة، إذ ليس المجال مجال تظاهر بالإبداع وجودة التشبيه وحسن الاستعارة، لأن صدق الإحساس وقوة العاطفة يكفيان فى إلهاب القارئ وإشعاله حين يجد حقيقة الموت التى يهابها ماثلة فى شعر صادق لا مجال للبس فيه.

إن أبا نواس فى بعض مقطوعاته عن الموت يتجه إلى بنى الدنيا فيصفهم بالنقص والضعف والخور واختلاف الطباع، مع الانهماك على اللذات ناسين أن يتساءلوا عمن كان قبلهم أين ذهبوا؟ وماذا صنع بهم الموت حين أخذهم أخذا سريعا يسبق اللمح والبصر، وقد نقلوا من القصور إلى القبور، حيث لا تضرب عليهم القباب ، ولا يتمتعون باللهو والسمر ، بل يجدون أنفسهم أمام حساب دقيق لا ينجى منه غير رحمة الله ومغفرته. كل ذلك عناه الشاعر حين قال[1]:

يا بنى النقص والعِيَرْ ∴ وبنى الضعف والخَوَرْ
وبنى البعد فى الطبا ∴ ع على القرب فى الصور
والشكولِ التى تبا ∴ ين فى الطول والقصرْ
أحتساءً من الحرا ∴ م، وختما على الصُّرَرِ ؟!

(١) الديوان ص٦١٢ .

أيـــن مـــن كـــان قـــبلكم ∴ مـــن ذوى البـــأس والخطـــر
ســـائلوا عـــنهم المـــدا ∴ ـــن واســـتبحثوا الخبـــر
ســـيقونا إلـــى الرحيـــ ∴ ـــل ، وإنـــا علـــى الأثـــر
مـــن مضـــى عبـــرة لنـــا ∴ وغـــدا تحـــن معتـــر
إن المـــــوت أخـــــذة ∴ تســـبق اللمـــح بالبصـــر
فكـــأنى بكـــم غـــداً ∴ فـــى ثيـــاب مـــن المـــدر
قـــد نقلـــتم مـــن القصـــو ∴ ر إلـــى ظلمـــة الحفـــر
حيـــث لا تضـــرب القبـــا ∴ ب علـــيكم ، ولا الحجـــر
حيـــث لا تظهـــرون فيـــ ∴ ـــها للهـــو ولا ســـمر
رحـــــم الله مســـــلما ∴ ذكـــــر الله فـــــازدجر
غفـــر الله ذنـــب مـــن ∴ خـــاف فاستشـــعر الحـــذر

٢ - والذى يتحدث عن الموت لابد أن يذم الدنيا، وأن ينظر إليها نظرة مريبة . وانهماك أبى نواس فى اللذات قد يكون انتحارا لا شعوريا يقصر أجله ويبعده عن هذه الحياة، فأبو نواس يحقر الدنيا، وهو يعلم أن النفس رغم حقارة هذه الحياة مشغولة بها، وأن الدنيا دائما مولية لا تستحق أن يعاش بها ، فضلا عن أن يتكبر فيها متكبر ، وما هو إلا جلد على عظم ولكنه يثنى على نفسه، ويرضى بسيرته فى الحياة ، وهو خادم للدنيا إذا ضعفت همته فلم تسم إلى ما هو أرقى من الحياة، على أنه يأثم ويذنب ولا يخاف من العاقبة حين يحيق الفناء.

لقد صور أبونواس حالة الشغل الشاغل للنفس بالدنيا على حقارتها فقال[1] :

لا تفرغُ النفسُ من شغل بدنياها ∴ رأيتُها لم ينلها من تمنّاها
إنا لنَنْفِسُ فى دنيا مولية ∴ وتَحْنُ قد نكتفى منها بأدناها
حذرتُك الكبر لا يعلقك ميسمُهُ ∴ فإنه ملبسٌ نازْعتَه اللهُ
يا بؤس جندٍ على عظم مخرقةٍ ∴ فيه الخروق إذا كلمتَه ناها
يرى عليك به فضلا يبين به ∴ إن نال فى العاجل السلطانَ والجاها
مُنّ على نفسه، راض بسيرتها ∴ كذبْتَ يا خادمَ الدنيا ومولاها
إنى لأمقتُ نفسى عند تَخْوَتِها ∴ فكيف آمنُ مقتَ الله إياها
أنت اللئيم الذى لم تعدُ همتَه ∴ إيثارَ دنيا إذا نابتْهُ لباها
يا راكبَ الذنب قد شابت مفارقُه ∴ أما تخافُ من الأيام عقباها

٣ – فإذا تركنا ما ذكره أبو نواس عن الموت ولدينا إلى منحى آخر من مناحى الزهد، فإننا نجد مناجاته وتضرعاته الإلهية ذات صلصلة رنانة فى ديوانه إذ تصور ابتهاله الصادق إلى ربه. وجنوحه إلى التوبة، واتساع آماله فى الغفران ، إذ أن الإنسان مهما كبر ذنبه فعفو الله أكبر من هذا الذنب، على أنه ريشة فى مهب القدر، وان يأتى إلا ما قضى الله عليه وقدر .

(١) الديوان ص٦١٣ .

لنستمع إلى أبي نواس مخاطبا نفسه بقوله[١]:

يـــا نـــواسٌ تـــوقر ∴ وتجمـــل ، وتصـــبر
ســـاءك الـــدهر بشـــئ ∴ وبمـــا ســـرك أكثـــر
يـــا كبيـــرَ الـــذنب عفـــوًا ∴ لله مـــن ذنبـــك أكبـــر
أكبـــر الأشـــياء عـــن أصغـــ ∴ ـــر عفـــو الله أصـــغر
لـــيس للإنســـان إلا ∴ مـــا مضـــى الله وقـــدر
لـــيس للمخلـــوق تدبـــ ∴ ـــير ، بـــل الله المـــدبر

وأقوى من هذه المقطوعة ما قاله أبو نواس مخاطبا ربه، ومصورا ما يحسه من فداحة ذنبه وعظم زلته، على أنه مع هاتين لا يعدم رجاءه في عفو الله لأنه مسلم يؤمن بربه، يقول أبونواس[٢]:

يا رب إن عظّمت ذنوبي كثـرة ∴ فلقد علمت بأن عفوك أعظـم
إن كان لا يرجـوك إلا محسـن ∴ فبمن يلوذ، ويستجير المجـرم
أدعوك رب كما أمرت تضـرعا ∴ فإذا رددت يدي فمن ذا يـرحم
مالي إليـك وسـيلةٌ إلا الرجـا ∴ وجميل عفوك ... ثم إنّيَ مسلم

أما المناجاة الرائعة التي قالها أبونواس في حجه فهي من أخف الشعر وأعذبه، ونحن نعلم أن أبا نواس قد ذهب يحج من أجل حبيبته (جنان) إذ تعذر عليه لقاؤها في بغداد، ثم علم أنها ستحج مع مولاهـا

(١) الديوان ص٦٢٠ .
(٢) الديوان ص٦١٨ .

فصمم على أن يسير وراءها، وفى هذا ما جعل بعض الباحثين يشك فى صدق هذه المناجاة التى قالها الشاعر مخاطبا ربه وهو يلبى ويهلل، ولكننا إذا دققنا فى الأمر نجد أن الشاعر وإن كان قد ذهب إلى الحج من أجل (جنان) فإن رؤيته طوائف الملبين وجموع الناس ينسلون من كل فج عميق إلى بيت الله مهللين مكبرين هذه الرؤية قد جعلته يتجه إلى ربه صادقا مخلصا آملا أن يغفر له ذنوبه العديدة، وقد ألهمه جو التكبير والتلبية أن يفصح عن مشاعره المتوثبة فى المناجاة الرقيقة. قال[1] :

إلهنا ما أعدك ∴ مليكَ كل من ملك
لبيكَ قد لبيتُ لك

لبيك إن الحمد لك ∴ والملك ، لا شريك لك
ما خاب عبدٌ سألك ∴ أنت له حيث سلك
لا لوك يا رب هلك

لبيك إن الحمد لك ∴ والملك لا شريك لك
كل نبى وملك ∴ وكل من أهلّ لك
وكل عبدٍ سألك ∴ سبح أو لبى فلك
لبيك إن الحمد لك ∴ والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك ∴ والسابحاتِ فى الفلك

(١) الديوان ص٦٢٣ .

علـــى مجـــارى المنســـك

لبيـــك إن الحمـــد لـــك ∴ والملـــك لا شـــريك لـــك
أعمـــل ويـــادر أجلـــك ∴ واختـــم بخيـــرٍ عملـــك
لبيـــك إن الحمـــد لـــك ∴ والملـــك .. لا شـــريك لـــك !!

ونحن نتساءل هل لجأ أبونواس إلى الزهد فى آخر حياته أو أنـــه كان طيلة عمره الشعرى يتردد بين الزهد والمجون ؟

يقول الأستاذ مصطفى عبدالرازق فى الرد على ذلك[1] :

" يرى بعض من ترجموا لهذا الشاعر الكبير أنه فى شـــيخوخته انصرف عن لذات هذا العالم، ووجه فنه الشعرى وجهة الزهد، بعد أن كان متجها إلى الخمر والغزل والمجون ، وإلى المـــدح والهجـــاء. ولا يعدم أصحاب هذا الرأى شواهد تؤيد رأيهم فـــى بعـــض مـــا يـــروى المؤرخون من أخبار أبى نواس فى آخر حياته وفى بعض ما روى من أشعاره ، فمن شعره قوله :

انقضت شرتى فعفـــت الملاهـــى ∴ إذ رمى الشيب مفرقى بالـــدواهى
ونهتنى النهى فملت إلـــى العـــ ∴ ـل وأشفقت مـــن مقالـــة نـــاه
أيها الغافل المقيم علـــى اللهـــ ∴ ـو ولا عذر فى المعاد لمـــاه
لا بأعمالنـــا نطيـــق خلاصـــا ∴ يوم تبدو السمات فوق الجبـــاه
غير أنا على الإساءة والتقريـــ ∴ ـط نرجو لحســـن عفـــو الإلـــه

(١) "أبو نواس حياته وشعره" المكتبة الحديثة للطباعة والنشر بيروت ص١٠ .

وفى ترجمة أبى نواس فى كتاب تاريخ بغداد :

" ... قال حدثنا الربيع بن سليمان، قال سمعت الشافعى يقول: دخلنا على أبى نواس وهو يجود بنفسه ، فقلنا: ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال :

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ∴ بعفوك ربى،كان عفوك أعظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تَزَلْ ∴ تجود وتعفو منة وتكرما

حدثنا على بن محمد بن زكريا قال: دخلت على أبى نواس وهو يكيد بنفسه فقال : تكتب؟ قلت: نعم. فأنشأ يقول :

دب فى الفناء سفلا وعلوا ∴ وأرانى أموت عضوا فعضوا
ذهبت شرتى بجدة نفسى ∴ وتذكرت طاعة الله نضوا
ليس من ساعة مضت بى إلا ∴ نقصتنى بمرها بى جزوا
لهف نفسى على ليال وأيا ∴ م سلكتهن لعبا ولهوا
وأسأنا كل الإساءة يا ر ∴ ب فصفحا عنا إلهى وعفوا

هذا ما نقله الأستاذ مصطفى عبدالرازق عن الخطيب البغدادى مما يؤيد وجهة النوبة فى أيام الشيب، لأن النصوص التى نقلها تنطق بذلك، فهو يقول : إن شرته قد انقضت لأن الشيب قد رمى الدواهى فى مفرقه، وهو يقول : إن الفناء قد دب فيه عضوا فعضوا، وهذان النصان قالهما فى أخريات حياته قطعا، ولكن الديوان يروى من

النصوص ما لا يدل على أنه قالها فى آخر الحيـاة مثـل المقطوعـة الأولى التى استشهدنا بها فى مطلع هذا البحث، وأولها :

أيا رب وجه فى التراب عتيـق ∴ ويا رب حسن فى التراب رقيق

ومثل قوله[1]:

يا مـن أقـام علـى خطيئتـه ∴ سدت عليـك مـذاهب الرشـد
منتك نفسـك أن تتـوب غـدا ∴ أو ما تخاف الموت دون غـد
المـوت ضـيف فاسـتعد لـه ∴ قبل النـزول بأفضـل العـدد
واعمـل لـدار أنـت جاعلهـا ∴ دار المقامـة آخـر الأمـد
يا نفس هو ردك الصراط غـدا ∴ فتأهبى مـن قبـل أن تـردى
ما حجتـى يـوم الحسـاب إذا ∴ شهدت على بما جنيـت يـدى

٤ – أمعن النواس فى التأمل والتفكر عندما أقبل خريف عمره، فنظر إلى ماضيه فوجده عامرا بالأوزار والآثام ، فأناب إلى ربه، وندم على تقصيره وتحسر على أيامه الضائعة فقال: فى مطلع قصيدة يمتدح بها الأمين[2]:

يا دارُ مـا فعلـت بـك الأيـام ∴ ضامتك والأيام لـيس تُضَـام
عَرَمَ الزمانُ على الذين عهدتهم ∴ بك قاطنين والزمـانِ عُـرام[3]
أيامَ لا أغشـى لأهلـكِ منـزلا ∴ إلا مراقبـةً علـى ظـلام

(١) أبو نواس حياته وشعره ص٨ .
(٢) الديوان ص٤٠٧ .
(٣) عرام الزمان : حدته وشراسته .

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم ∴ وأسمتُ سرّحَ اللهو حيث أساموا
وبلغتُ ما بلغ امرؤ بشبابه ∴ فإذا عصارة كل ذاك أثامُ

وقال نادما وناصحا أيضا[1]:

أيا من بين باطية وزق ∴ وعود في يدى غان يغنى[2]
إذا لم تنه نفسك عن هواها ∴ وتحسن صونها فإليك عنى
فإن قد شبعت من المعاصى ∴ ومن إدمانها ، وشبعن منى
ومن أسوا وأقبح من لبيب ∴ يرى متطربا في مثل سنى

وقد أقر بذنبه، وأعلن ندمه وأسفه، فقال[3]:

فقد ندمت على ما كان من خَطَلٍ ∴ ومن إضاعة مكتوب اليواقيتِ
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما ∴ عفوت ياذا العلا عن صاحب الحوت

فهذه النفس التي شبعت من المعاصى ، وأمعنت في الجموح لا يستبعد منها أن تثوب وتؤوب . وتقر بالوزر ، وتندم على التقصير؛ ولذلك قال أحد الباحثين في ندم أبي نواس: "وعنصر الندم والاستغفار هو الغالب في أشعاره الزاهدة، ومعانيه في هذا الجانب وليدة النفس

(١) الديوان ص١٧ .
(٢) الغانى : المغنى .
(٣) الديوان ص٤٠ .

المضطربة، فكانت جديدة فى بابها لم يسبقه بها أحد[١] ولقد كره نفسه ، ولامها على تقصيرها وعكوفها على اللذات فقال[٢]:

ألم ترانى أبحث اللهو نفسى ∴ ودينى،واعتكفت على المعاصى
كأنى لا أعود إلى مَعاد ∴ ولا أخشى هناك من قِصاص

ثم نتساءل: هل الندم الذى أعلنه وأذاعه أبو نواس ندم صادق وإقرار مخلص بالذنب؟

ويجيب عن ذلك الأستاذ عباس العقاد حيث يرى أن التوبة لم تكن مستمرة، بل كانت مترددة فى مراحل حياته الأخيرة، وينفى عنه الزندقة التى غرق فى لجتها كثيرون من شعراء عصره، ويرى أبا نواس كان يتردد فى التوبة لضعفه عن مقاومة الغواية والفجور، ولكن هذه التوبة المترددة لم تلبث أن امحت ، واستقرت فى باطنه توبة نصوحا مخلصة، تردد صداها فى كثير من شعر الزهد الذى قاله فى خريف عمره بخاصة، قال العقاد[٣]: ويسرى هذا على شعره كله فى التوبة والعظة ، ما خلا نتفا يسيرة من نظمه فى أخريات عمره، قد تستشف منها خاطرة الأسف الصادق والحزن الخاشع، ولم تأت هذه التوبة إلا بعد مطاولة ومراوغة يستبقى بهما بقية الشباب :

كان الشباب مطية الجهل ∴ ومحسن الضحكات والهزل

---

(١) أدب الزهد فى العصر العباسى د. عبدالستار مولى / الهيئة العامة .
(٢) الديوان ص٦٢٢ .
(٣) أبو نواس ص١٥٧ .

كان الجمـــال إذا ارتـــديت بـــه ∴ ومشيت أخطر صـــيت النعـــل
كـــان المشـــفع فـــى مآربـــه ∴ عنـــد الفتـــاة ومـــدرك النبـــل
والباعث النـــاس قـــد رقـــدوا ∴ حتـــى أبيـــت خليفـــة البعـــل
والآمـــرى حتـــى إذا عزمـــت ∴ نفـــس أعـــان يـــدى بالفعـــل
والآن صـــرت إلـــى مقاربـــة ∴ وحططت عن ظهر الصبار حلى
والـــراح أهواهـــا وإن رزأت ∴ بلغ المعـــاش وقلـــت فضـــلى

فالشاعر يعترف بتأخر توبته المترددة عند شبابه، والتى استقرت وهدأت بعد انطفاء جذوة الشباب ٠

ويقول العقاد[1] : وكلمة الخير التى نقال صدقا فى الشاعر : أن الآفـة عنده إنما هى آفة الضعف والشعور المغلوب، وليست آفة الشر والأذى ٠

٥ – ومن الموضوعات التى دار حولها شعر الزهد عنـد أبـى نواس: الخوف من الله، والتأكيد على مراقبته لعباده حتى يخلصوا لـه، ويجتهدوا فى طاعته، ويبتعدوا عن غرور الدنيا ومفاتنها ، فإنها تقبـل على الإنسان، وتسرف فى إقبالها ثم تهب عليه، وتنتقم منـه ، ولـذلك قال أبو نواس شعرا كثيرا فى هذا الاتجاه بالذات ٠

وله قصيدة طويلة، من أعظم ما قال فى شعر الزهد، وقد ذكرنـا منها بعض الأبيات ، وها نحن نذكر بعضا آخر ، قال :

يا نفـس خـافى الله واتئـذى ∴ واسعى لنفسك سـعى مجتهـد

(١) أبو نواس ص١٦٢ ٠

من كـان جمـع المـال همتـه ∴ لم يخل من غـم ومـن نكـد
يـا طالـب الـدنيا ليجمعهـا ∴ جمعت بـك الآمـال فاقتصـد
واراك تركـب ظهـر مطمعـة ∴ تطوى بهـا بلـدا إلـى بلـد
لـو لـم تكـن لله متهمـا ∴ لم تمس محتاجـا إلـى أحـد
فاقصد، فلسـت بمـدرك أمـلا ∴ إلا بعـون الواحـد الصمـدِ
والقصد أحسن ما عملـت بـه ∴ فاسلك سبيل الخيـر واجتهـد
والحرص يفقـر أهلـه حسـدا ∴ والرزق أقصى غايـة الحسـدِ
ولعـل مـن يشـجى بغصـته ∴ إلا ذوو الآمـال والعـدد
ولـرب سـاع فـات مطلبـه ∴ لم يؤت من حزم ومـن جلـد
ومشمر فـى الـرزق خطوتـه ∴ ظفـرت يـداه بمرتـع رغـد
أو ما تـرى الآجـال راصـدة ∴ لتحول بين الـروح والجسـد

وربما كان طول نفس الشاعر فى هذه القصيدة دليلا على أنها من بنات أفكاره بعد أن شبع من الدنيا، وأقلع عن شهواتها، وأيقن بمراقبة الله له، فيزداد خوفه، وتتعظ ضميره بعد غفوته الطويلة. وقال أيضا[1]:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ∴ خلوت، ولكن قل على رقيـب
ولا تحسـبن الله يغفـل سـاعة ∴ ولا أن ما تخفى: عليه يغيـب
لهونا بعمر طال حتـى ترادفـت ∴ ذنوب علـى آثـارهن ذنـوب

(١) الديوان ص٦١٥ .

وربما كان إحساسه بمراقبة الله له من أقوى الدوافع على تزهده وعودته إلى ربه بالعمل الصالح والإيمان الصادق .

٦ - ولهذا الزهد جنح النواسى إلى الطريق السوى فدعا إلى حسن الإعداد للآخرة، وذلك بالتقى والعمل الصالح ، وحث على ترك الشهوات ومجانبة المعاصى، فقال[1] :

سبحان علام الغيوب ∴ عجبا لتصريف الخطوب
تغدو على قطف النفو ∴ س وتجتنى ثمر القلوب
حتى متى يا نفس تغـ ∴ ترين بالأمل الكذوب
يا نفس توبى قبل أن ∴ لا تستطيعى أن تتوبى
واستغفرى لذنبك الـ ∴ رحمن غفار الذنوب
إن الحوادث كالريا ∴ ح عليك دائمة الهبوب
والموت شرع واحد ∴ والخلق مختلفوا الضروب
والسعى فى طلب التقى ∴ من خير مكسبة الكسوب
ولقلما ينجو الفتى ∴ بتقاه من لطخ العيوب !

ومما قاله عن يوم القيامة، محذرا من محنته وقوة أهواله، ليتذكر الأحياء ويعتبروا بما جرى للأموات :

وهذى القيامة قد أشرفت ∴ وتريك مخاوف فزعاتها[2]

---

(١) الديوان ص١ : ٦١ .
(٢) الديوان ص١ : ٦١ .

وقد أقبلت بمواعيدها ∴ وأهوالها فارع لوماتِها
وإني لفي بعض أشراطها ∴ وآياتها ، وعلاماتها
تبارك رب دحا أرضه ∴ وأحكم تقدير أقواتِها
وصيرها محنة للورى ∴ تغر الغوى بغزواتها
فما ترعوى لأعاجيبها ∴ ولا لتصرف حالاتها
فنافس فيها وأيامها ∴ تردد فينا بآفاتها
أما يتفكر أحياؤها ∴ فيعتبرون بأمواتها

وكان هذا الشعر نتيجة لاعتراف أبي نواس بذنبه، فقد أسرف في المعاصي بشتى صنوفها، ونهج ــ إلى فترة ــ نهج الزنادقة ، فحبس أكثر من مرة، وعوقب أشد العقاب ، أو شك معه على الموت ، وصاحب المجان وأهل الفجور وأحل ما حرم الله وتغزل بالمذكر، ثم ها هو ذا يقر بذنبه، ويتوب إلى ربه ويعمل للآخرة ، ويذكر بيوم القيامة ، ويذم الدنيا، وينفر من المعاصي، ويحذر من الشهوات ، ويزهد بشعر أثار الحيرة بين الأدباء والنقاد قديما وحديثا، وقد ذكرنا منه كثيرا من النماذج والأمثلة على اختلاف صنوفه وألوانه .

بين أبي العتاهية وأبي نواس :

عاش أبو العتاهية في عصر أبي‌نواس،حيث ولد في عام١٣٠هـ، وتوفي في عصر المأمون ، أي أن الرجلين قد عاشا حياتهما في القرن الثاني للهجرة ، وأقاما بالعراق ؛ واتصلا ببعضهما ، مما جعل الناس يتحدثون عنهما ويوازنون بينهما إذ أنهما قد التقا في أمور كثيرة واختلفا

أيضا فى أمور كثيرة، مما يشجعنا على الموازنة بصورة مختصرة تتفق مع حجم هذه الدراسة ، وفى نطاق لون واحد، وهو شعر الزهد .

ولقد بدأ العتاهى حياته بالمجون ، واتهم بالزندقة، وعندما اتجه إلى الزهد تعقبه كثرة من معاصريه، وشككوا فى زهده، وذكروا بعض أخباره التى تنوه معها الحقيقة،ولهذا قال الدكتور زكى مبارك: "والكلام عن بخل أبى العتاهية وشحه ومنعه الزكاة كثير جدا، يجده القارئ فى الأغانى وغيره، والأقاصيص المروية عنه بعضها صحيح وبعضها منحول، ولكنها فى جملتها تدل على أن معاصريه تلقى مسلكه فى الزهد بالفخر والسخرية، واستكثروا عليه أن يكون من أهل الحكمة والدين"(١).

والذى يتابع ما كتب عنه سوف يرى ما أغرم به معاصروه من تعقب أخباره، لحمل الناس على الشك والارتياب فى تنسكه وزهده فقد اتهموه بالبخل والشح على نفسه، فلا يكون بذلك من الزاهدين ، وعلى كل ، فقد ترك أبوالعتاهية حياته الأولى وانصرف إلى الزهد بسبب فشله فى حب (عتبة) محبوبته، أو لانصراف الدنيا عنه، ولإحساسه بالحرمان منها ، أو لأسباب أخرى، على أن الرجل قد ظل ما يقرب من ثلاثين عاما يتغنى بكأس الموت التى تدور على سائر الخلق، ولزم جانب التدين ، وترك سيرته الأولى وجعل من شعر الزهد فنا مستقلا ، فأجاد فيه وأكثر منه ، ودفع عن نفسه تهمة الزندقة، فقال فيما يرويه

(١) التصوف الإسلامى جـ١ ص٦٧ .

أبو الفرج الأصفهانى : زعم الناس أنى زنديق، والله ما دينى إلا التوحيد. فقلنا له: فقل شيئا نتحدث به عنك، قال :

ألا إننا كلنا بائد ∴ وأى بنى آدم خالد ؟
وبدؤهم كان من ربهم ∴ وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإله ∴ أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة ∴ وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شئ له آية ∴ تدل على أنه الواحد[1]

ومن شعره فى الزهد قوله :

هب الدنيا تساق إليك عفوا ∴ أليس مصير ذاك إلى الزوال[2]
فما ترجو بشئ ليس يبقى ∴ وشيكا ما تغيره الليالى
وحقك كل ذا يفنى سريعا ∴ ولا شئ يدوم مع الليالى

وقد أطال أبو العتاهية فى شعره عن الحياة والموت ومصير الإنسان ، وكان يتضرع إلى الله مع الأسف والندم على ما اقترف من الذنوب والآثام، قال :

إلهى لا تعذبنى فإنى ∴ مقر بالذى قد كان منى[3]
وما لى حيلة إلا رجائى ∴ وعفوك إن عفوت وحسن ظنى

---

(١) الأبيات فى ديوان أبى العتاهية ص١٢٢ طبعة دار صادر .
(٢) الديوان ص٢٣٨ .
(٣) الديوان ص٤٢٥ .

فكم من زلة لـى فـى البرايـا ∴ وأنت علـى ذو فضـل ومـن
إذا فكـرت فـى نـدمى عليهـا ∴ عضضت أناملى وقرعت سنى
يظن الناس بـى خيـرا وإنـى ∴ لشر الناس، إن لم تعف عنـى

وهذا آخر ما قاله أبو العتاهية من شعر فى مرضه الـذى مـات فيه، ومما قاله فى الاستعداد للموت والعمل ليوم الرحيل :

يـا نفـس قـد أزف الرحيـل ∴ وأظلـك الخطـب الجليـل[1]
فتـأهبى ، يـا نفـس ، لا ∴ يلعـب بـك الأمـل الطويـل
فلتنـزلن بمنـزل ∴ ينسـى الخليـل بـه الخليـل
وليـركبن عليـك فيـه ∴ ـه عـن الثـرى ثقـل ثقيـل
قـرن الفنـاء بنـا، فمـا ∴ يبقـى العزيـز ، ولا الـذليل
لا تعمـر الـدنيا فليـ ∴ ـس إلـى البقـاء بهـا سـبيل

وقد كثر شعر أبى العتاهية، ومعظمه فى الزهد الذى اتجه بالكثير منه إلى الموت محذرا من رهبته، ومنبها إلى شـموله لسـائر الخلـق ونزوله بالعباد .

ويتفق أبو نواس مع أبى العتاهية فى اتجاههما إلى شعر الزهـد بعد أن أسرفا فى المجون، وأقبلا على الدنيا، واتهما بالزندقة، على أن أبا العتاهية قد اتجه إلى الزهد فى مرحلة متقدمة من عمـره فاسـتمر يلهج بالنسك والتوبة والتزهد ما يقرب من ثلاثين عاما ، ولهـذا كثـر

(١) الديوان صـ٣٥٧ .

شعره فى الزهد كثرة لا يوازن بها ما قاله أبونواس فى خريف عمـره من شعر الزهد الذى يحتل بابا واحدا فى ديوانه ٠

ومع قلة الشعر الزهدى عند أبى نواس وكثرته عند أبى العتاهية رأينا الدكتور زكى مبارك يقدم الأول على العتاهى عنـد الحـديث عنهما فى كتابه "التصوف الإسلامى" ، وأبان عن ذلك فقال :

٠ (١) وبعد أبى نواس يأتى أبوالعتاهية، وكان أولى بالتقديم، لغلبة الزهد على شعره، ولكنا نرى القليل من زهديات أبى نـواس: أحفـل بروح الصدق من كثير أبىالعتاهية" ٠

وقد اتسم شعر الزهد عند الشاعرين بطابع عام لا يفارقهما، حيث أدرك كل منهما قسوة الأعباء وثقل الأوزار التى ينوء بها كاهـل كـل واحد منهما ، وشعرا بخطئهما، فكان شعر الزهد تنفيسـا عـن هـذه الكروب وتنويجا للتوبة النصوح، ولكن هذا الإحساس أو هذه الثـورة: لم تستقر فى قلب أبى العتاهية وتنفجر منه مثلما انفجرت من وجـدان أبى نواس الذى كان أكثر صدقا وإخلاصا من أبى العتاهية ٠

ومن شعرهما فى المناجاة والابتهال : ما ذكره صـاحب زهـر الآداب ، حيث روى لأبى العتاهية مقطوعة سبق أن ذكرناها، وأولها:

قوا عجبا كيف يعصـى المليـ ـك أم كيف يجحـده الجاحـد

---

(١) التصوف الإسلامى جـ١ ص٩٥ ٠

وكان قد جلس فى دكان وراق،وأخذ كتابا،وكتب الأبيات المذكورة على ظهره، وانصرف، ويقول الحصرى : "فاجتاز أبونواس بالموضع، فرأى الأبيات ، فقال : لمن هذا ؟ فلو ودتها لى بجميع شعرى ، فقيل: لإسماعيل بن القاسم (أبى العتاهية) فوقع تحتها:

سبحان من خلق الخلـ ∴ ق من ضعيف مهين
فصاغه من قرار ∴ إلى قرار مكين
يحول شيئا فشيئا ∴ فى الحجب دون العيون
حتى يدت حركات ∴ مخلوقة من سكون[1]

وكان كل منهما يعجب بشعر صاحبه فى الزهد مصداقا لما ذكره الحصرى ولما ذكره أبو نواس أيضا فى شأن أبى العتاهية حيث قال : "ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى وأنا أرضى، وقال أبو نواس : "أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون" عندما استمع إلى أبيات لأبى العتاهية، وهى:

لا ترقدن لعينك السهر ∴ وانظر إلى ما تصنع الغير
انظر إلى غير معرفة ∴ إن كان ينفع عينك النظر
وإذا سألت فلم تجد أحدا ∴ فسل الزمان ، فعنده الخبر[2]

(١) زهر الآداب جـ١ ص٢٣٢ .
(٢) تاريخ بغداد جـ٦ ص٢٥ .

وقال أبو العتاهية : قد قلت فى الزهد عشرين ألف بيت، وودت لو أن لى مكانها الأبيات الثلاثة التى قالها أبو نواس :

يـــا نـــواس تـــوقر ∴ وتجمـــل وتصـــب
إن ســاءك الــدهر بشــئ ∴ إن وبما ســرك أكثــر
يــا كبيــر الــذنب عفــوا ∴ اللــه من ذنبك أكبــر[1]

وكان أبو العتاهية يتمنى أن يترك له ابو نواس شعبيته فــى فــن الزهد، على أن يترك لأبى نواس شعبيته فى الخمر والغزل بالمذكر ، إلا أن هذه الأمنية التى روتهــا كتــب الأدب : ربمــا أســاءت إلــى أبى العتاهية، وجعلت همه فى الزهد هو الوصول إلى أهداف معينة، من غير اعتقاد صحيح أو توبة خالصة. وكانت هذه الروايــة مــن أهــم الدلائل فى التشكيك وإضفاء الريب على توبة أبىالعتاهية وتوبة أبــى نواس أيضا .

وقد اقتربت المعانى من بعضها عند الشاعرين اقترابا أوقع الرواة فى اضطراب كبير فرأينا بعضهم وقد نسب بعض المقطوعات إلى أبى العتاهية، ورأينا البعض الآخر وقد نســب المقطوعــات نفســها إلــى أبىنواس.

ومن ذلك المقطوعة التالية التى وردت فى ديوانى أبى العتاهيــة وأبى نواس وهى[2]:

(١) الديوان ص٦١٣ .
(٢) ديوان أبى العتاهية ص٤١٤ وديوان أبى نواس ص٦١٧ .

أيـــا مـــن بـــين باطيـــة ودن ∴ وعود فى يـدى غـــاو مغـــن
إذا لم تنه نفســك عـــن هواهـــا ∴ وتحسن صونها، فإليك عنـــى
فـــإن اللهـــو والملهـــى جنـــون ∴ ولست من الجنون،وليس منى
وأى قبـــيح أقـــبح مـــن لبيـــب ∴ يرى متطربا فى مثـــل ســـنى
إذا لـــم يتـــب كهـــل لشـــيب ∴ فليس بتائب ما عـــاش ظنـــى

وربما كانت كثرة شعر الزهد عند أبى العتاهية ليست لـــه، إذ علتها مسحة من التكرار والتقليد، وكان شعر الزهد عنده فى الغالـــب سهلا لينا، ولهذا شاع فى العامة، لأن لغته اقتربت مـــن لغـــة الحيـــاة اليومية، وتعلقت بهذا اللون الطبقة التى لم تكن تعرف إلا الكد والشقاء وشظف العيش وصعوبة الحياة.

وقال عنه الدكتور زكى مبارك: "كـــان غزيـــر البحـــر لطيـــف المعانى، سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف، إلا أنه كثير الســـاقط المرذول مع ذلك، وأكثر شعره فـــى الزهـــد والأمثـــال"[1] وإذا كـــان معاصروه قد اتهموه فى زهده وتوبتـــه ونســـجوا حولـــه الحكايـــات والأقاويل ، إلا أن أحكامهم لم تكن منصفة وليست مبنية علـــى مـــنهج نقدى محايد، وقد نهض أبو العتاهية مع كل هذا النقد المتبـــاين بـــدوره الريادى فى شعر الزهد، وأخلص لهذا الفن، وقال فيه ديوانا كبيـــرا لا زال باقيا وشاهدا على عبقريته وسجلا حافلا لشعر الزهد فـــى القـــرن الثانى من الهجرة.

(١) التصوف الإسلامى جـــ١ ص٩٥ .

أما أبونواس فقد أخلص فى توبته، وقال شعرا قليلا فى الزهد، لكنه حظى بإعجاب الكثيرين، لما فيه من صدق العواطف ورقة المشاعر، وقد خاطب النواس الملوك والأمراء وأصحاب النفوذ فى شعره الزهدى، بينما خاطب أبوالعتاهية العامة بشعره الزهدى واتجه إليهم، وعبر عن آلامهم ، وقد نهض الشاعران مع غيرهما من شعراء عصرهما بتبعة النهوض بالشعر الدينى فى القرن الثانى من الهجرة.

آراء المعاصرين فى شعر الزهد عند أبى نواس :

١ - فى بحث للأستاذ عباس محمود العقاد عن أبى نواس تحدث فيه عن عقيدته الدينية، ورأى أنه ليس من اللادينيين فقال : "لم يكن عن يقين من اللادينيين، لأنه لم ينقطع قط عن اللهج بالأديان، وإن كان ليلهج بها لهجا لا يطيب للمتدينين الصالحين" ثم قال : "إنه لم يذكر قط مجلسا من مجالس لهوه ولا معرضا من معارض غزله، إلا أشار معه إلى جوه الدينى أو علاقته الدينية، بغير داعية من دواعى الموضوع أو المقام"(١) ومع شهرة أبى نواس فى المجون ومخالطته أولاد بنى الحباب وغيره من المجان، واتهامه بالزندقة ودخوله السجن بسببها أكثر من مرة، فقد عاش أبو نواس مرتبطا بالدين كبير اللهج به والتحدث عنه، وقد اختار إحدى النحل المنتشرة فى عصره لكى يتمكن معها من الجمع بين عقيدته الدينية وعبثه ومجونه، فاعتنق نحلة المرجئة التى نشأت مع ظهور الخلاف بين المسلمين بعد مقتل عثمان ابن عفان ﷺ .

---

(١) أبو نواس ص١٤٢ .

وقال العقاد تعليلا على تعلق النواس لهذه النحلة: "ليجمع بين لهوه واعتقاده الإيمان، وطفق ينادى بإنكار الشرك، ولا يبالى ما عداه فقال:

ترى عندنا ما يسخط الله كله ∴ من العمل المردى الفتى ما خلا الشركا

وقال :

ترى عندنا ما يكره الله كله ∴ سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر[1]

وللنواس شعر كثير ينبئ عن هذا الاتجاه نحو الدين، بل ويؤكده تأكيدا، ويكفى أن نذكر منه بعض الأبيات التى يقول فيها :

خل جنبيك للرام ∴ وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ∴ لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمذ ∴ ح مغاليق الحمام
رب لفظ ساق آجا ∴ ل نيام وقيام
إنما السالم من ألجـ ∴ ـم فاه بلجام
فالبس الناس على الصحـ ∴ ـة منهم والسقام
وعليك القصد إن الـ ∴ قصد أبقى للجمام
ثبت يا هذا وما نتـ ∴ رك أخلاق الغلام
والمنايا آكلات ∴ شاربات للأنام

(١) المرجع السابق ص١٥١ .

وهكذا استبان لنا تنقل الشاعر بين المجون والزهد، فى عنفوان شبابه، بما لا يبعده عن الدين أو يجرده من الإسلام، أما تحوله إلى الزهد وإعلانه للنسك وتوبته فى آخر حياته فقد أثار الخلاف بين المحدثين ، إذ أنه ــ كما رأى العقاد ــ لم يكن جادا فى معظم ما قاله طول حياته بمعنى أن توبته لم تكن صادقة ، وذكر العقاد أن بعض الأشعار فى النسك والتوبة كان يصطنعها النواسى: خوفا من الأمين، واستشهد بقوله:

اطع الخليفة واعصَ ذا عزفٍ ∴ وتنح عن طربٍ وعن قصف

وقال : " أو يكون النظم فى النسك بابا من أبواب (العرض) وصدق التمثيل ليقال : إنه قال فى النسك وهو ماجن ما لم يحذقه النساك ...

ثم قال : "وكان أبو العتاهية يقول : سبقنى أبو نواس إلى ثلاثة أبيات، وددت لو أنى سبقته إليها بكل ما نظمته، فإنه أشعر الناس فيها، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله ∴ منه من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متهما ∴ لم يمس محتاجا إلى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت .: له عن عدو فى ثياب صديق[1]

وهكذا ، تردد النواس فى توبته فى شبابه، وفى طول حياته، ولم يكن الشر والأذى طبعا فيه، وكانت الأفة عنده هى الضعف والشعور المغلوب، ثم يجمع الأستاذ عباس العقاد رأيه فى أبى نواس فيقول : "وما لم يكن من شعر التوبة إطاعة لأمر أو إدلالاً بقدرة فنية ، فلعله خاطرة من خاطرات الندم تطيف بقلبه ساعة، ثم تمحوها داعية من دواعى اللهو، فينساها . ويسرى هذا على شعره كله فى التوبة والعظة ، ما خلا نتفا يسيرة من نظمه فى أخريات عمره، قد تستشف منها خاطرة الأسف الصادق والحزن الخاشع، ولم تأت هذه التوبة إلا بعد مطاولة ومراوغة يستبقى بهما بقية الشباب"[2] وقد ذكر العقاد فى تدليله على هذا المنحى بعض الأشعار أو النتف اليسيرة، مما لا يخرج عما استشهدنا به خلال هذا البحث .

٢ – وفى مقالات الدكتور طه حسين التى انتظم منها الجزء الثانى من كتابه "حديث الأربعاء" عقد عدة فصول تحدث فيها عن أبى نواس، وقد هوجم الدكتور طه حسين هجوماً عنيفاً عندما جعل النواس ممثلا لعصره فى الشك والمجون وإيثار اللذة، ورد عليه الكثيرون، واشتد الخلاف بينهم، وقد نهضت جريدة السياسة بنشر كل تلك المقالات فى العقد الثالث من هذا القرن، وتحدث الدكتور طه حسين

---

(١) المرجع السابق ص١٥٥ .
(٢) المرجع السابق ص١٥٧ .

عن فنون الشعر عند أبى نواس وختمها بالحديث عن شعر الزهد، فقال: "أما الفن الذى أريد أن أختم به القول فى أبى نواس، فهو فن الزهد، وقد أجاد فيه أبو نواس إجادة لا بأس بها، وذلك مفهوم أيضا: فلو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبى نواس لما استطعت، إلا أن تقول : إن أبا نواس كان يزدرى الحياة ويسخر منها"(١) ثم يقول : "فليس غريبا إذاً أن يجيد أبو نواس فى المجون وفى الزهد معا، على أنى لا أستطيع أن أحكم على أبى نواس : أكان هو مسلما خفا أم لم يكن ، ولعل أصدق حكم ممكن فى أبى نواس هو: أنه تجاوز حدود الإسلام وازدرى أصوله وقواعده غير مرة فى حياته الطويلة، ولنقل: إن شعره فى الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضا ، ولنختم قولنا بهذه الأبيات القيمة التى قالها فى الزهد(٢).

أيـــة نـــار قـــدح القـــادح ∴ وأى جـــد بلـــغ المـــازح
لله در الشـــيب مـــن واعـــظ ∴ وناصح ، لو حظـى الناصـح
بأبى الفتـى إلا اتبـاع الهـوى ∴ ومـنهج الحـق لـه واضـح
فاسـم بعينيـك إلـى نسـوة ∴ مهـورهن العمـل الصـالح
لا يجتلى الحوراء مـن خـدرها ∴ إلا امـرؤ ميزانـه راجـح
مـن اتقـى الله فـذاك الـذى ∴ سيق إليـه المتجـر الـرابح
شمر، فما فى الـدين أغلوطـة ∴ ورح لمـا أنـت لـه رائـح

(١) حديث الأربعاء جـ٢ ص١٣٧ دار المعارف .
(٢) حديث الأربعاء جـ٢ ص١٣٨ .

٣ – وفى كتاب "التصوف الإسلامى" للدكتور زكى مبارك تحدث عن كلام الشعراء فى الزهد، وبدأ بأبى نواس، ثم بأبى العتاهية، وقد عجبت من تقديمه للنواسى على العتاهى ، إلا أنه ذكر ما يزيل هذا العجب . فقال : "ونبدأ هذا الفصل بالكلام عن أبى نواس لأنه أظهر شخصية تكلمت فى الزهد بعد المجون ، ويمتاز أبو نواس بالإخلاص فى كل ما لهج به من المعانى الشعرية، فهو مخلص فى زندقته، ومخلص فى فجوره، ومخلص فى تقاه، ولا تكاد تشعر بأن أبا نواس يعبث، إنما يتكلم بكلام أصحاب المبادئ ، فهو يشك عن إخلاص ، ويلحد عن إخلاص، ويفسق عن إخلاص، ويتوب عن إخلاص فهو نموذج لقوة الروح وحياة الوجدان فى مسالك الهوى ومسارب الضلال"[1].

وربما كان فى هذا الكلام غنية عن صفحات مطولة فى الحديث عن أبى نواس، وأهم ما فيه الإشارة : بروح الصدق التى يحفل بها. فلقد كان الرجل صادقا فى مجونه وخلاعته ، وصادقا أيضا فى زهده واعتداله .

ويرى الدكتور زكى مبارك أن النواس يثق بالله، ويدعو إلى الإيمان به، وأن الحاجة إلى الناس من علامات ضعف اليقين، واستشهد ببيته الذى قال فيه :

لو لم تكن لله متهما ∴ لم تمس محتاجا إلى أحد

---

(١) التصوف الإسلامى جـ١ ص٩١ .

وقال الدكتور زكى مبارك : "وفى ديوان أبى نواس باب اسمه الزهد يشتمل على قصائد ومقطوعات تمثل رأى الشاعر فى بعض الأزمات النفسية والأخلاقية، فليرجع إليه القارئ إن شاء ، ولكن لابد من الإشارة إلى أن هذا الشاعر يتفق له أحيانا أن ينطق بأبيات هى نماذج من الندم الموجع، وهو يتحدث عن المجون.

وتعليل ذلك سهل : "فلبعض النفوس الجوامح صبوات إلى ما فى الرشد من طمأنينة وأمان "[١].

٤ – وكتب الدكتور محمد رجب البيومى[٢] مقالا بعنوان "أبونواس يحج" فى كتاب "نظرات أدبية ، الجزء الثانى ، تناول فيه بالشرح والتحليل ما قاله أبونواس فى حجه، فى السنة التى حجت فيها محبوبته "جنان" مع مولاها عبدالوهاب الثقفى، وأمام الكعبة المشرفة أشرقت روحه. وهام وجدانه فلهج بالتلبية المشهورة له، التى عرضنا لها واستشهدنا بها، وقد عبر الدكتور رجب البيومى عن هذا الموقف فقال : "ومع هذا فقد تيقظت مشاعر الحسن فجأة فى طوافه وتلبيته، فلم يكد يسمع التراتيم الشجية يصدع بها الملبون طوائف تتلاحق وتتابع. حتى حركت أوتار قلبه، وأخذ النغم الساحر يسكب فى سمعه نشوة راقصة، فنسى "جنان" بضع لحظات وسحره الجمع الحاشد يصيح ويستصرخ، فلبى مع الملبين، تلبية هى فى الواقع تغريدة عذبة، صدح بها فنان

---

(١) المرجع السابق ص٩٤ .
(٢) عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة الأسبق.

موهوب[١] ويذكر رأيه فى مقطوعة أبى نواس فى التلبية وفى سائر شعر الزهد عنده، فيقول : "وكثيرا ما يقف الأدباء أمام مقطوعة الحسن فى التلبية وما يشاكلها من أشعاره فى الزهد والتوبة حائرين مرتبكين، حيث يستغربون صدور هذه النفثات الصادقة من خليع مستهتر بالشرع الحنيف، ولقد فات هؤلاء جميعا: أن لكل نفس مهما غرقت فى الخلاعة والفسق سبحات خاطفة تصلها بالسماء ، فتندم على ما فرطت فى جنب الله ، وتتجه إلى الخالق مستغفرة باكية ، فلا عجب إذا أدركت الشاعر هذه اللحظات الخاطفة فى أبياته الزاهدة، لاسيما والحسن برغم مجونه الزائد، متصل السبب بالآثار الدينية والمواعظ الروحية[٢].

من مجموع ما ذكرناه عن أبى نواس — سواء مما قدمناه فى الحديث عنه أو مما نقلناه عن الأدباء المحدثين — تتضح الصورة لهذا الشاعر فيما قاله من زهد، فالرجل قد تردد فى توبته طوال حياته، ولهذا التردد : رفض البعض شعره فى الزهد، وزعموا أنه قالله للافتتان أو مجاراة لأبى العتاهية وأمثاله الذين كانت تروج أشعارهم فى العامة ، ولأن ما قاله أثناء ذلك لا ينسجم مع شعره فى الخمر والمجون، وعلى كل فقد كانت نفسه منقسمة إلى قسمين : أحدهما يتجه بها إلى المجون، والآخر يدفع بها إلى الزهد ، حتى إذا كبر سنه اشتد ورعه ولهج بما لهج به من ورع وزهد .

---

(١) نظرات أدبية جـ٢ ص٨٢ مطبعة زهران سنة ١٩٧١م .
(٢) المرجع السابق ص٨٣ .

خاتمة :

ليس للنواس شعر كثير فى الزهد، ومع قلة ما قاله فى هذا اللون: إلا أنه تميز بالصدق والجودة والتعبير، وقد رأينا كيف كانت زهدياته قوية ومؤثرة ولهذا حازت إعجاب الكثيرين قديما وحديثا على السواء.

ويتميز هذا الشعر بعمق الأفكار ورحابة الأخيلة وصدق العواطف والمشاعر، والإخلاص فيما لهج به وعبر عنه ، ولهذا قال الدكتور زكى مبارك "إن أبا نواس قد مرت به لحظات كان قلبه فيها أرق من الهواء وأطهر من الماء، وإن لأبى نواس أشعارا فى الندم هى أقوى وأصدق من كل ما نظم أبو العتاهية فى الزهد، وليس بكثير أن يغفر الله لذلك الشاعر، الذى ظلم نفسه: ثم أناب إلى الله" .

وقد أوصى أن تكتب على قبره هذه الأبيات :

وعظتك أحداث صمت ∴ ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه ∴ تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك فى القبو ∴ ر ، وأنت حتى لم تمت

وقد خاطب أبو نواس بشعره الملوك والأمراء وأصحاب النفوذ، وتغلغل فى أعماق نفوسهم، ووقف على بعض الطقوس الموروثة من قبل عصره، وكشف عن موهبته فى استحضار الملح والنوادر من المعانى التى ابتكرها بموهبته الفذة وقدراته الخلاقة فاجتنب التكرار والتكلف، واختار أسهل الألفاظ التى تواكب شعر الزهد. وإذا كانت

تونيه فى عنفوان شبابه : محل ظن وارتياب فإن عظمته الشعرية فوق الشكوك والظنون، وقد استعاد بما حصله من سائر العلوم، وأخذه من سائر الثقافات، وأبونواس صورة لعصره وبيئته فى مجونه وزهده، وفى إقباله على الدنيا وانصرافه عنها . وقد لحق بربه بعد مصرع الأمين بوقت قليل، فى نهاية القرن الثانى من الهجرة، وترك الناس من بعده يتحدثون عن شعره ويختلفون فى زهده، ولا زالوا مختلفين .

أهم المراجع والمصادر

١) أبو العتاهية ــ حياته وشعره للدكتور/ محمد محمود الدش : دار الكاتب العربى ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م ٠

٢) أبو نواس :الحسن بن هانئ ــ عباس محمود العقاد ، دار الهلال٠

٣) أبو نواس : حياته وشعره ، بأقلام عدد من الأدباء والنقاد ــ المكتبة الحديثة للطباعة والنشر ، بيروت ــ وقد طبع الكتاب أولا بدار الهلال المصرية ٠

٤) أدب الزهد فى العصر العباسى ، الدكتور عبدالستار السيد متولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م ٠

٥) البيان والتبيين للجاحظ جـ٣ مطبعة الخانجى بمصر ــ تحقيق عبدالسلام هارون ٠

٦) تاريخ آداب اللغة العربية ٠ جرجى زيدان جـ٢ دار الهلال٠

٧) تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول) د٠ شوقى ضيف : دار المعارف الطبعة الثامنه ٠

٨) التصوف الإسلامى للدكتور زكى مبارك ــ الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨م مطبعة الرسالة ٠

٩) حديث الأربعاء للدكتور طه حسين جـ ٢ دار المعارف ــ الطبعة الثانية عشرة ٠

١٠) ديوان أبى العتاهية ٠ دار صادر بيروت ، لبنان ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ٠

١١) ديوان أبى نواس ــ شرح الغزالى ــ دار الكتاب العربى بيروت ، لبنان ١٩٨٣م ٠

١٢) ديوان أبى نواس : طبعة دار صادر بيروت ٠

١٣) ديوان أبى نواس (حياته ــ تاريخه ــ نوادره ــ شعره) المكتبة الثقافية ــ بيروت ــ لبنان ٠

ملامح البيئة المصرية
فى شعر البهاء زهير

حياة البهاء زهير فى مصر :

اتسم الشعر العربى فى مصر إبان حكم الفاطميين والايوبيين بالرقة والخفة والعذوبة وتجلى ذلك فى شعر ابن سناء الملك والبهاء زهير، وابن مطروح وغيرهم ، على أن هذا الاتجاه الذى تميز به الشعر المصرى آنذاك كان تعبيراً عن الطبائع الاجتماعية ، واستجابة لما جبلت عليه النفسية العربية فى مصر .

وكان ابن خلكان قد تحدث عن البهاء زهير، وترجم له فى (وفيات الأعيان)، وقال عن شعره : "وشعره كله لطيف، وهو كما يقال: السهل الممتنع[١].

ولد البهاء (أبو الفضل زهير محمد بن على بن يحيى) بالقرب من مكة عام ٥٨١هـ ، ونشأ بقوص صعيد مصر، وانتقل إلى القاهرة، واتصل بملوك بنى أيوب، ومات فى عام ٦٥٦هـ.

أما قوص فكانت آنذاك ثالثة المدن المصرية من حيث المكانة والأهمية، وقال عنها ياقوت : "وهى مدينة عظيمة واسعة[٢] وتمكن البهاء بمن فى هذه المدينة من علماء وشعراء ومثقفين من أن ينشأ نشأة أدبية راقية جعلته يحسن القول والتعبير عن البيئة المصرية، ولذا قال

---

(١) وفيات الأعيان ج٢ ص٣٣٦ طبع دار الثقافة بيروت تحقيق د/ احسان عباس.

(٢) معجم البلدان ج٤ ص٤١٣ طبع دار صادر ــ بيروت .

عنه الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله : "لست أعرف شاعراً نفخت مصر فيه من روحها ما نفخت فى البهاء زهير، فهو مصرى فى عواطفه، وفى ذوقه، وفى لهجته إلى الغاية القصوى"(١).

وقد أكثر البهاء من مديح الملوك والأمراء الأيوبيين، أى أنه لم يقصر شعره على الطوائف العامة فى قوص ، بل شمل بفنه كثيراً من وجهاء عصره، وأبرزهم على الإطلاق هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وارتقى فنه ، وسمت شاعريته، وتنوعت ثقافته، ولهذا كان جديراً برئاسته لديوان الإنشاء .

ومن المؤكد أن الشعر العربى لم ينفصل عن الحياة الاجتماعية فى عصر البهاء ، وتجلى ذلك فى وقوف الشعراء خلف الأيوبيين الذين تصدوا للغزو الصليبى، وبرزت السمة الحماسية على كثير من القصائد المطولة التى اتجه بها الشعراء إلى الملوك والأمراء والأعيان، وكان شعر البهاء صورة لعصره، وتعبيراً عن بيئته وتمثيلاً لثقافته، وقد تحدث عنه أحمد حسن الزيات فقال : "جاء (شعره) عذبا رقيقاً يطمع السامع أن يأتى بمثله لسهولته ورقته، فإذا حاول عجز، فشعره فيض قريحته، ووحى طبيعته وصورة بيئته، لم يقلد فيه أحداً، ولم يطلب من غير شعوره مدداً، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصريين وأساليبهم ... "(٢).

---

(١) البهاء زهير للدكتور عبدالفتاح شلبى ص٦٥ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٨٠م .

(٢) تاريخ الأدب العربى ص٣٥٦ الطبعة الخامسة والعشرون.

ولبهاء شعر كثير فى الحنين إلى مصر والتشوق إليها قال :

ألرحل من مصرَ وطيبِ نعيمهـا ∴ فأى مكانٍ بعدها لى شـائقُ[1]

وقال :

ولم أر مصرا مثل مصر تروقنـى ∴ ولامثل مافيهامن العيش والخفض

وبعـد بـلادى فـالبلاد جميعهـا ∴ سواءفلاأختار بعضا على بعض[2]

وديوانه زاخر بالقصائد والمقطوعات التى تبـرز حبـه لمصـر وتعلقه بها .

٤ـ غرامه بالطبيعة المصرية :

تنوعت الأغراض الشعرية فى ديوان البهاء ، وامتـد فنـه إلـى وصف الطبيعة الحية والصامتة وقرأنا له شعراً يتغنى فيـه بالصـعيد وأهله ، وشعراً آخر يصف فيه النيل وأمواجه وشواطئه ، وهو يحـن إلى مصر ، ويشتاق إلى مروجها الخضر ، ويدعو لها بالغيث والسقيا، ويهوى ورود النيل وأصوات الشحارير، متنقلاً بين الجمال الحى فـى وصفه للغيد الحسان ، وبين جمال الطبيعة فى المروج والأغصـان ، قال :

أيـامُ مصـر ليتهـا ∴ قُـديت بأيـامى البـواقى

وبجانـب الفسـطاط لـى ∴ قمـرٌ يُعـزّ لـى فراقـى[3]

---

(١) الديوان ص١٨٠ تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوى طبع دار المعارف بمصر ١٩٨٢م .
(٢) الديوان ص١٤٩ .
(٣) الديوان ص١٨٦ .

وهو يحن إلى مصر ، ويشتاق إلى أيام صباوته فيها، ولم يكن البهاء أول من تغنى بها، وعبر عن شوقه إليها، فقد تجلت هذه الروح القومية إبان الحروب الصليبية، وفى عهد صلاح الدين الأيوبى بصفة خاصة ، ويعد ابن سناء الملك أبرز من فجر هذه المشاعر القومية، أما البهاء فقد اتخذ لنفسه عدة طرق لتجسيد شعوره الوطنى، وكان منها ثناؤه على الملوك والأمراء الأيوبيين كما سوف توضح فيما بعد — وليس هذا فحسب ، بل إنه أبرز غرامه بالطبيعة المصرية ودعا لربوعها بالسقيا فقال :

سقى واديا بين العريش وبرقة ∴ من الغيث هطَّالٌ هناك وهتانُ
وحيَّا النسيم الرطب إذا سرى ∴ هنالك أوطانٌ إذا قيل أوطان
بلاد متى ما جئتها جئت جنة ∴ لعينك منها كلما شئت رضوانُ[1]

وذكر صعيد مصر ، وعبر عن ارتياحه للحياة بين أهله فقال :

ويرتاح قلبى للصعيد وأهله ∴ وعيش مضى لى عندهم ومُقامى
وأهوى ورُود النيل من أجل أنه ∴ يمر على قوم علىّ كرام[2]

وقال :

نزلنا شاطئ النيل ∴ على بُسُط الأزاهير
وقد أضحى لنا بالمو ∴ ج وجهٌ ذو أسارير

---

(١) الديوان ص٢٦٤ .
(٢) الديوان ص٢٣٦ .

وفـــى الشـــط حَبَّـــابٌ مثـــــ ∴ ل أنصـــــاف القـــــوارير
تســـــابقنا إلـــــى اللهـــــو ∴ ووافينـــــا بتبكيـــــرِ[١]

وكان أكثر وصفه للطبيعة مرتبطاً بمجالس أنسه وأيام لهوه، أما النيل فلا زال إلى اليوم ــ كما كان بالأمس البعيد ــ ملاذاً للعشاق ومرتعاً للمحبين يلتفون حوله ، ويتغنون بمائه، فهو مصدر الحب ورمز الحياة منذ آلاف السنين ، وهكذا "أحب البهاء مصر ، واهتزت شاعريته لطبيعتها، وهتف بها واصفاً وتحدث فى وصفه عن النيل ، وأمواجه والمراكب فيه والجو، والأزاهير ، والأثمار والدوحات والطيور والمروج والنواعير وتراب مصر وحصباءها وأصالها. وأكثر ما يتحدث عن ذلك وهو مغترب، فهو حينئذ يحن إلى مصر ويذكر مجاليها وأيامه ولياليه فيها"[٢].

وقد أسهمت البيئة فى تفتح الموهبة الشعرية عند البهاء ، ولذا قال محققا الديوان : "ونحن لا ننكر أثر البيئة فى تكوين الشاعر ، ولكننا نرى فى كل ما نقرأ فى ديوانه أنه يصدر عن طبيعة متأصلة تنميها البيئة ولا تخلقها، فهى أقرب إلى الغرائز الطبيعية منها إلى اللون المكتسب"[٣].

---

(١) الديوان ص١١١ .
(٢) البهاء زهير للدكتور عبدالفتاح شلبى ص٥٥ .
(٣) الديوان ص٦ (المقدمة).

تصويره للحياة المصرية :

يعد البهاء زهير واحداً من الشعراء الشعبيين الذين عزفوا على أوتار الجماهير ، وعبروا عن مختلف عواطفهم وقضاياهم ، وهكذا كان شأن أكثر الشعراء فى عصره، إذ لم يعزلوا أنفسهم عن المشكلات الاجتماعية بل أبرزوا المناحى المختلفة للحياة اليومية، وقد خطا شاعرنا فى ذلك خطوات واسعة، وله قصيدة ينتقد فيها جماعة من رفقائه الذين ابتلى بهم قال :

أرى قوماً بُليت بهم ∴ نصيبى منهمُ نَصَبِى
فمنهم من ينافقنى ∴ فيحلف لى ويكذب بى
ويُلزمنى بتصديق الـ ∴ ـذى قد قال مِنّ كذب
وذو عجب إذا حدثـ ∴ ـت عنه جئتُ بالعجب

ويرد على من يسأله عن سبب صحبته لهؤلاء فيقول :

لأمر ما صحبتهم ∴ فلا تسأل عن السبب[1]

وقد عبر عن جوانب أخرى من حياة الناس سواء أكانت فى الحب أم فى المسرات أم فى الهموم والأحزان، وهى المظاهر التى تكتسى بها العلائق الإنسانية، ويرى أن أسعد الناس من لا يعرف الناس على حد قوله :

قلّ التفاتُ فلا تركن إلى أحدٍ ∴ فأسعدُ الناس من لا يعرف الناسا[2]

---

(١) الديوان ص٤٠ .
(٢) الديوان ص١٤١ .

ويوبخ من يخلفون الوعد ، ويماطلون فى القضاء انطلاقاً من الجملة الشعبية التى تتكرر على ألسنة كثير من الناس وهى: (قوت علينا بكرة)، قال :

قد طال فى الوعد الأمَدْ ∴ والحرُّ يتجزُ ما وعد
ووعدتنى يوم الخميـ ∴ ـس فلا الخميسُ ولا الأحدْ
وإذا اقتضيتك لم تزد ∴ عن قول إى والله غدّ[1]

ولا يخفى ما يتميز به هذا الشعر من خفة وسهولة وعذوبة ، والذى يتواكب مع الحياة المصرية بما فيها من تبسيط ومفاكهة ، وقد تجلت هذه الخصائص فى أسلوب البهاء ، وإننا لنراه يكرر كثيراً بعض التعابير التى تنطلق بها الألسنة العامة مثل (أهلاً وسهلاً) (وظنى فيك لا يخيب) (واحسب حسابك) وغيرها، قال شوقى ضيف : "هذا الشاعر من خير من يعبرون عن الروح المصرية فى العصر الأيوبى"[2].

ويمتد تصوير البهاء للحياة المصرية إلى صبوات العشاق من خلال أسلوبه العذب الذى يجارى به البيئة فى فكرها وذوقها، قال:

تنصَّلَ مما جرى واعتذرْ ∴ وأطرق مرتديا بالخَفَرْ
فبادرتُ تُرْباً عليه مَشَى ∴ أقبل من قدميه الأثر

(١) الديوان ص٧٩ .
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٩٧ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٨م.

وقمت فقلت له مرحبا .. وأهلا وسهلا بهذا القمر[١]

على أن هذه الملامح تجعلنا نوقن بصدق ما قاله ابن خلكان عن شعر البهاء ، حيث ذكر أنه كثير الوجود بأيدى الناس[٢] ويعنى بكثرته فى أيدى الناس أنهم مشتاقون به حافظون له حريصون عليه ، ويتأكد فى قصائد الديوان ومقطوعاته سواء أكانت غزلاً أم هجاءً أم شوقاً وحنيناً .

ويتحول البهاء فى بعض قصائده من راصد لحركة الحياة إلى موجه لها ومؤثر فيها، وهو فى كل ذلك لا يتحول عن مذهبه التعبيرى الذى ساير فيه اتجاه العصر فى التقريب بين الفصحى والعامية، وكأن شعره جريدة يومية يلتف الناس حولها ويتفحصون فيها، ثم إنه استطاع أن يطوع اللغة للتعبير عن المعانى البسيطة التى تتصل بعامة الشعب ، مؤكداً بذلك على مرونتها واتساع مفرداتها. وقد أجمل بعض الباحثين تصوير شعر البهاء لعصره، فقال: " ويلقى شعر البهاء ضوءا على الحياة فى عصره، فهو يشير إلى كثير من العادات الدينية ، وأحوال المجتمع كالنذور للأولياء فى أضرحتهم بالمساجد، وكالحديث عن طائفة الرفاعية ، وما عرف عنهم من خوض النيران، وتسبيح المؤذنين فى الأسحار، وعن مظاهر الاحتفال فى عيده من دق الطبول ورفع الرايات وعن حجاب الرؤساء وخشونتهم وعن اللعب بالنرد ، والخط على الرمل والتنجيم لمعرفة ما يكنه الغيب ، وعن المراثين

---

(١) الديوان ص١٢٦ .
(٢) وفيات الأعيان ج٢ ص٣٣٦ .

الذين يظهرون الزهد وهم على الدنيا متكالبون، وعن المرؤسين الذين يبذلون جهودهم، ورؤساؤهم عنهم غافلون[١].

ويتناول البهاء فى شعره شؤون المجتمع المصرى ناقدا ما فيه من سلبيات مشيدا بما فيه من إيجابيات مصورا للجوانب المختلفة من الحياة الاجتماعية .

حديثه عن جهاد مصر ضد الغزاة :

كانت انتصارات صلاح الدين الأيوبى على الفرنجة حافزا قويا دفع السلاطين والأمراء من أبناء الأيوبيين، ليواصلوا هذه المسيرة، وكانت موقعة دمياط التى انتصر فيها المسلمون واستردوا ثغرها من الصليبيين أبرز المعارك التى أعادت للمسلمين كرامتهم فى ذلك الوقت. وكان الملك الكامل قد سحق الأعداء ، ودمر أسطولهم ففروا هاربين إلى البحر المتوسط، وعمت الأفراح كل الديار المصرية والعربية ، ونهض البهاء بمدح مليكه الذى حقق النصر فى هذه المعركة بواحدة من أروع قصائده، قال :

بك اهتز عِطْفُ الدين فى حلل النصر ∴ وردت على أعقابها ملّةُ الكفر
فقد أصبحتْ والحمد لله نعمةً ∴ يقصّر عنها قدرةُ الحمد والشكر

وقد صدر فيها عن روح دينية وشعور قومى نبيل، واعتزاز بموقف المسلمين، كما جعلها خالصة لمدح الملك الكامل لاسترداد ثغر دمياط ، ودلل بها على تنامى الشعور بالوحدة العربية، وذكر أن الفرح

(١) البهاء زهير للدكتور عبدالفتاح شلبى ص٦٣ .

بهذا النصر لم يكن قاصرا على مصر بل شاركتها فيه مواطن أخرى من ديار العرب والمسلمين قال :

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدَها ∴ لقد فرحت بغدادُ أكثرُ من مصرِ
فلو لم يقم بالله حقّ قيامه ∴ لما سلمت دار الإسلام من الدهر
وأقسم لولا همةٌ "كاملية" ∴ لخافت رجالٌ بالمقام وبالحِجْر
فمن مبلغ هذا الهناء لمكةٍ ∴ ويثرب تنهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله إن سميه ∴ حمى بيضة الإسلام من نُوَب الدهر
به ارتُجِعت دمياط قهرا من العدا ∴ وطهرها بالسيف والملة الطُّهْر(١)

وإذا كان البهاء يتميز ــ كأكثر شعراء عصره ــ بخفة الروح وعذوبة الأسلوب ، فإنه لم يقطع صلته بالتراث الشعرى القديم، إذ أن له فى هذه القصيدة بخاصة بعض الأبيات التى يتضح فيها تأثره بالمتقدمين من الشعراء كقوله :

فروَّيت منهم ظامئ البيض والقَنَا ∴ وأشبعتَ منهم طاوى الذئب والنَّسْرِ

إذ نأثر فيه ببيت أبى فراس الذى قال فيه :

فأصدى إلى أن ترتوى البيض والقنا ∴ وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

ولكن هذا التأثر لم يصرف البهاء عن امتزاجه بالبيئة المصرية، وانعكاس روحها العامة عليه، فنراه فى بيت آخر من القصيدة نفسها

(١) الديوان ص٩٩ وما بعدها .

يورد كلمة بعيدة عن المقياس اللغوى الصحيح وهى كلمة (مرتاح) التى جاءت فى قوله :

وإنى لمرتاح إلـى كـل قـادم ∴ إذا كان من ذاك الفتوح على ذكـر

وكان البهاء قد لزم الصالح أيوب، وارتحل معـه إلـى الشـام، ومدحه بالشجاعة والإقدام ، قال :

يُروِّى القنا بدم الأعادى فى الوغى ∴ فلذاك تُثْمِرُ بالرءوس وتُـورق
يمضى فيقدُمُ جيشُه مـن هيبـةٍ ∴ جيش يغضُّ به الزمانُ ويُشـرق
مـلأ القلـوب مهابـةً ومحبـة ∴ فالبأس يُرهب والمكارم تُعْشـق
ستجوب آفـاقَ الـبلاد جيـادُه ∴ ويروى له فى كل فج فيلـق[1]

فهذا اللون لم يخرج البهاء عن الطبائع المميزة لشعره من حيـث جريانه على الفطرة والبساطة بلا تكلف ، أما السهولة فلم تكـن سـمة خاصة به بل كانت "سهولة" جماعية يلتقى علـى سـاحاتها الشـعراء المصريون ممتزجين فيها ببيئتهم، بل قل صادرين عنها، وعما يجرى فيها من استواء ويسر دون التواء .. [2].

(١) الديوان ص١٧٧ .
(٢) فصول فى الشعر ونقده د/ شوقى ضيف ص١٧٦ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م .

ميله إلى الفكاهة والدعابة :

لقد انعكست الروح المصرية على شعر البهاء زهير ، فهو يستعمل الأمثال والنكات التى تدور على ألسنة الناس، مع سهولة فى التعبير والبعد عن التكلف ، قال :

شرفونى بزورة ∴ شرف الله قدركم
ورأيتم تجلدى ∴ فى هواكم فغركم
لو وصلتم محبيكم ∴ ما الذى كان ضركم
مات فى الحب صبوة ∴ عظم الله أجركم[1]

ولا زال الشعب المصرى يردد إلى اليوم فى المصائب والملمات جملة "عظم الله أجركم" وقد ساقها الشاعر فى موقف غزلى يدعو فيه هواه ومنى قلبه إلى الوصال ونبذ الفراق. وفى موقف آخر يدعو حبيبه إلى كتم الأسرار، ويتمثل بما نقوله فى أمثال هذا الموقف "للحيطان آذان" ، قال:

إياك يدرى حديثا بيننا أحد ∴ فهم يقولون : للحيطان آذان

ويحاول الهرب من السهاد بالنوم فيقول فى بيت آخر من القصيدة نفسها :

من لى بنومى أشكو ذا السهاد له ∴ فهم يقولون:إن النوم سلطان[2]

---

(١) الديوان ص١٢١ .
(٢) الديوان ص٢٦٥ .

وتزداد هذه المداعبات والمطارحات فى الشعر الغزلى الذى أكثر منه البهاء، وأجاد فيه خاصة وأن الأفكار الوجدانية فى هذا الشعر من النوع البسيط الذى يتلاءم مع طبائع العامة من الشعب، ولننظر إلى قوله الآتى :

من اليوم تاريخ المحبة بيننا ∴ عفا الله عن ذاك العتاب الذى جرى[1]

حيث لا يختلف عما يقوله الناس لبعضهم بعد العتاب : "عفا الله عما سلف" وقد تنبه بعض المستشرقين إلى هذه الخصائص التى تميز بها شعر البهاء فقال (هيار)، فى كتابه "الأدب العربى": "إن شعر البهاء يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف"[2].

ويتجاوز بهذه السهولة اللفظية حدود المواقف الغزلية إلى الفكاهة والمداعبة التى كانت سمة بارزة على حياة المصريين أيام الفاطميين والأيوبيين، وهو هنا يهجو أو يمزح مع صديق له فيقول واصفاً بغلته:

لك يا صديقى بغلة ∴ ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسبها العيو ∴ نُ على الطريق مُشَكَّلَه
وتُخَال مدبرة إذا ∴ ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطو ∴ يلة حين تسرع أُمْلَه

---

(١) الديوان ص١٠٦ .
(٢) البهاء زهير لعبدالفتاح شلبى ص٦٤ .

تهتـــز وهـــى مكانهـــا ∴ فكأنمـــا هـــى زلزلـــه[1]

ويمتد الهجاء أو المزاح فى بيتين آخرين إلى صاحبها بما نعـف عن ذكره . وللبهاء مقطوعات قصيرة تجمع بين الهجاء والمزاح ساقها بروحه المرحة، وبساطته المألوفة التى تساير البيئة المصرية، كقوله:

أنـــا لا أبـــالى بالرقيـــب ∴ ـــب ولا بمنظـــره القبـــيح
غمـــز الحواجـــب بيننـــا ∴ أحلى من القـــول الصـــريح[2]

فالروح المصرية تسرى فى كثير من الأغراض الشعرية، كمـا يتميز شعره بالمعانى الطريفة والأوزان الخفيفة،والدعابة والتورية وكل ما يثير الضحك سواء من ناحية المعانى والمواقف الواضـحة أو مـن ناحية الأسلوب وما يشتمل عليه من مفارقات فى الجمل والتراكيب.

الأسلوب:

يمثل البهاء زهير الشعر المصرى أصدق تمثيـل، وقـد كانـت السهولة هى السمة الغالبة على هذا الفن إبان عصره، وأتاحـت هـذه السهولة للشعر أن يقترب ـ فى معظمه ـ من لغة الحيـاة اليوميـة، ويبدو أن الحروب الصليبية قد أذابت الفواصل بين العامة وفن الشعر، وهم الذين وجدوا فيه صدى لمعارك الإسلام ضد الغزاة المعتدين، وقد تمكن البهاء بفضل موهبته من التقريب بين اللغة الفصـحى واللهجـة العامية فى الكلمات والتراكيب، وصارت مواقف الحياة (الشعبية) مادة

(١) الديوان ص٢٢٧ .
(٢) الديوان ص ٥٧ .

أو مضموناً لكثير من القصائد والمقطوعات ، والتى قدمها فى صـــورة سهلة بسيطة غير معقدة،فملامح البيئة تتضح فى الأفكار والموضوعات التى عرض لها، وتتضح أيضاً فى الأسلوب السهل الرقيق، كما وشـــى شعره بضروب من البديع مثل الجناس والطباق والتورية، وهـــى مـــن مظاهر الصناعة اللفظية التى تميز بها الشعر آنذاك .

وسوف يتضح من الأمثلة التى سنعرض لها ارتبـــاط الأســـاليب الشعبية بالبيئة المصرية، ويتجلى ذلك فى الكلمـــة المفـــردة والجملـــة المركبة والتشبيهات البسيطة الساذجة .

ومثال ذلك فى الكلمات المفردة كلمة (الزبون) بمعنى المشـــترى من تاجر وهى كلمة شعبية مولدة، وقد ذكرها فى بيت له قال فيه:

وحقكم عندى لـــه ألـــف طالـــب ∴ وألف زبون يشتريه بزائـــد[1]

وكلمة (الرزة) بمعنى الحديدة التى يدخل فيها القفل، ومـــع أنهـــا صحيحة لغويا إلا أنها قاصرة على الاستعمال الشعبى، وذكرها البهـــاء فقال :

فلا عاذلى ينفك عنـــى إصـــبعا ∴ ولاوَقَعَتْفىرزةالحب إصبعى[2]

كما أخرج كلمة (الخليع) من معناها اللغوى واستعملها اســـتعمالا شعبيا بمعنى القديم قال :

---

(١) الديوان ص٨٤ .
(٢) الديوان ص١٥٤ .

ذهب الجديد من الشيا ∴ ب فكيف ظنك بالخليع
ووددت لو دام الخليـ ∴ ـع فهل إليه من شفيع[1]

كما خالف قواعد اللغة فاستعمل لفظ (صدفة) وهى كلمة شعبية فى معنى مصادفة وجاءت فى قوله:

عسى نظرة من حسن رأيك صدفة ∴ تسوق إلى جدبى بها الماء والكلا[2]

وقد خفف الهمزة بحذفها من كلمة (الكلأ) فى البيت السابق .

ونراه على طريقة المصريين يدخل واو القسم على كلمة (حياتكم) فيقول (وحياتكم)، وجاءت فى عدة مواضع منها قوله :

هيهات لا وحياتكم ∴ حبى أجل وأعظم[3]

ونجد من أمثال هذه الكلمات قدراً كبيراً، والذى نستشف منه الروح المصرية الأصيلة، مع أن هذه الكلمات لا زالت على ألسنة العامة وبعض المثقفين إلى اليوم .

أما الجمل اللغوية المصاغة فى سهولة وخفة وبساطة فهى كثيرة جداً، تكاد لا تخلو منها قصيدة أو مقطوعة، فالشعبيون فى مصر يقولون: من يسمع ومن يدرى، وذكر البهاء ذلك فقال :

وكم قلت، ولكن أيـ ∴ ـن من يسمع أو يدرى

---

(١) الديوان ص١٥٨ .
(٢) الديوان ص٢٠١ .
(٣) الديوان ص١١٤ .

ويقولون : "للحيطان آذان" وصاغها شاعرنا فقال :

إياك يدرى حديثا بيننا أحد ∴ فهم يقولم: للحيطان آذان[١]

ويقولون : "الحسب حسابك" وأوردها البهاء زهير فقال :

احسب حسابك فى الذى ∴ تنويه من قبل الشروع[٢]

ويقولون : "النوم سلطان" وذكرها البهاء فقال :

من لى بنومى أشكو ذا السهاد له ∴ فهم يقولون: إن النوم سلطان[٣]

ويقولون : "العقل زينة" واستعملها البهاء فى هجاء شخص فقال:

ما العقل إلا زينة ∴ سبحان من أخلاك منه[٤]

ويقولون : "احفظ لسانك" وأوردها فى نصيحة له فقال :

فاحفظ لسانك تسترح ∴ فلقد كفى ما قد جرى[٥]

ومن الأساليب والجمل الشعبية قولهم : "كفانا الله شرك" وذكرها البهاء فى حق شخص فقال :

لا جزاك الله خيراً ∴ وكفانا الله شرك[٦]

---

(١) الديوان ص٢٦٥ .
(٢) الديوان ص١٦٠ .
(٣) الديوان ص٢٦٥ .
(٤) الديوان ص٢٧٥ .
(٥) الديوان ص١١٩ .
(٦) الديوان ص١٣١ .

وأورد فى شعره كثيراً من التعابير الخاصة بالبيئة المصرية مثل (أهلاً وسهلاً) و(أعادنا الله منه) و(على رأسى وعينى) و(لا ناقة لـى فيها ولا جمل) و(لم يمر ببالى) و(الذنب ذنبى) و(على العين والرأس) و(من لا يسمى) و(العود أحمد) وغيرها.

كما يحاول بسط المعنى وتقريبه بعبارات بسيطة مستعملاً فيها أنماطاً من التشبيهات الشعبية الخفيفة، ولننظر إلى قوله:

وليلة من الليالى الصالحة ∴ باتت بها الهموم عنى بارحة
وغادة بوصلها مسامحة ∴ تحفظ ودى مثل حفظ الفاتحة[1]

فالمصريون يقولون إلى الآن : "مثل الفاتحة" فى كل شئ يراد التنبيه على قوة حفظه، كما يشبهون الكلام الثقيل بالرصاص، وقد استعمل البهاء هذا التركيب فى هجاء شخص فقال :

أيْرَمَنِى كلامه الطويلُ ∴ فليته كان له محصولُ
وجملة الأمر ولا أطيل ∴ هو الرصاص بارد ثقيلُ[2]

وتتضح الملامح الشعبية فى قوله :

نحن كضرتين فى معركة ∴ أدّرعُ الصبرَ عند لُقْياها[3]

(١) الديوان ص٥٩ .
(٢) الديوان ص٢١٣ .
(٣) الديوان ص٢٩٠ .

ومن الواضح فى الأمثلة والشواهد السابقة أن الشاعر حريص على تصحيح لغة الحياة اليومية بحيث تتأتى موافقة لقواعد اللغة الفصحى باستثناء عدد قليل من الكلمات والذى لا ينفى الحرص على اللغة الصحيحة.

إن هذا المستوى من التعبير هو الذى يطلق عليه (اللغة الدارجة)، ويسمى فى العصر الحاضر (لغة الصحافة) والتى تتلاءم مع عامة القراء، على أن هذه اللغة السهلة المتداولة كانت مسايرة لروح العصر، ومرتبطة بالغالبية من الشعراء، وإن بعدت فى هذه الأيام عن الحياة الأدبية، واحتفظت ببقائها على الأفواه والألسنة .

ثم إن هذه السهولة لم تكن قاصرة على الكلمة المفردة أو الجملة المركبة بل كانت سمة عامة على الأسلوب، بحيث تبدو عليه مظاهر الخفة والبساطة، ولذلك يجد القارئ عسرا أو مشقة فى فهمه واستيعابه، ويدل هذا المنحى على مقدار إحساس الشعراء بالبيئة وارتباطهم بها.

خفة الوزن وجمال الموسيقى :

جاء الكثير من شعر البهاء فى صورة مقطعات صغيرة ما بين بيتين إلى ستة أبيات، وهذا ملمح من ملامح الخفة والبساطة، ثم إن أكثر قصائده ومقطوعاته قد جاءت من البحور الخفيفة باستثناء المدائح التى نظمها من بحرى الطويل والكامل، ولهذا قال أحد الباحثين: "وقد جاء شعره صالحاً للغناء والتوقيع به على الصاجات بروحه الخفيفة

وقافيته المرقصة، ونغمته المطربة وأوزانه الموسيقية، وإنك لترى البهاء يسجل ذلك حين يقول :

كلامى غنى عن لحون تزينه ∴ له معبد من نفسه ومخارق
تغنى به الندمان وهو فكاهة ∴ ويورده الصوفى وهو رقائق[1]

ويحرص كثيراً على التناسق فى الألفاظ والتقسيم بين الفقرات حتى فى بحر الطويل نراه يقول :

ففى كل يوم لى حنين مجدد ∴ وفى كل أرض لى حبيب مفارقُ[2]

كما يميل إلى استعمال الأوزان المجزوءة، وهو ملمح من ملامح الخفة والبساطة، فمن مجزوء الكامل قوله:

أيامُ مصر لبتها ∴ فديتْ بأيامى البواقى
وبجانب الفسطاط لى ∴ قمرٌ يعزّ له فراقى[3]

ومن مجزوء الرجز قوله :

يا رب قد أشبحتُ أر ∴ جوك وأرجو كرمك
يا رب ما أكثر ما ∴ كثّرتَ عندى نِعَمَكْ[4]

---

(١) البهاء زهير لعبدالفتاح شلبى ص٤٤ .
(٢) الديوان ص١٨٠ .
(٣) الديوان ص١٨٦ .
(٤) الديوان ص١٩٤ ، ١٩٥ .

ومن مجزوء الرمل قوله:

يـــا ســـيدى أنـــا الـــذى ∴ تملكـــه ومـــا ملـــك
يســـرنى إن كـــان فـــى ∴ ملكـــى مـــا يصـــلح لـــك[١]

كما قال فى (الدوبيت) وهو وزن فارسى نقله المولدون إلى اللغة العربية، وله فيه عدة نماذج شعرية منها قوله :

يـــا مـــن لعبـــت بـــه شَـــمُولٌ ∴ مـــا أطـــف هـــذه الشـــمائل
نشـــــوانٌ بهـــــزه دلالٌ ∴ كالغصن مـــع النســـيم مائـــل
لا يمكنـــــه الكـــــلام لكـــــن ∴ قـــد حمَّـــل طرفـــه رســـائل[٢]

وهكذا امتدت السهولة من الكلمـات والتراكيـب إلـى الأوزان والقوافى، فتحول الشعر كله أنشودة من أناشيد الحب التى غناها البهاء على أرض مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى.

(١) الديوان ص١٩٥ .
(٢) الديوان ص٢١٤ .

أهم المصادر والمراجع

١) الأعلام ــ خير الدين الزركلى ، المجلد الثالث ــ طبع دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة ١٩٨٤م .

٢) البهاء زهير ــ د/ عبدالفتاح شلبى ــ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٨٠م.

٣) تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجى زيدان ، الجزء الثالث ــ طبع دار الهلال بمصر .

٤) تاريخ الأدب العربى ــ أحمد حسن الزيات ــ الطبعة الخامسة والعشرون .

٥) تاريخ الأدب العربى ــ عمر فروخ ــ الجزء الثالث ــ طبع دار العلم للملايين ــ الطبعة الرابعة ١٩٨٤م .

٦) ديوان البهاء زهير ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوى ، طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٨٢م.

٧) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ــ د / شوقى ضيف طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م .

٨) فصول فى الشعر ونقده ــ د / شوقى ضيف ، طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٧م الطبعة الثانية .

٩) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ــ د/ شوقى ضيف ــ طبع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٨م الطبعة العاشرة .

١٠) معجم البلدان ــ ياقوت الحموى ــ طبع دار صادر ــ بيروت الجزء الرابع .

١١) المنتخب من أدب العرب،جمع وشرح أحمد الإسكندرى وآخرين الطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٩٤٩م ، الجزء الثانى.

١٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ــ تحقيق د/ إحسان عباس ،دار الثقافة ، بيروت الجزء الثانى .

الحياة الاجتماعية كما صورها البوصيرى

عاش البوصيرى فى القرن السابع الهجرى، وعاصر الأحداث الجسام التى أحاطت بالشرق الإسلامى من غزو تترى، وقتال صليبى، وشهد انتقال الحكم فى مصر والشام من الأيوبيين إلى المماليك الذين بدأوا حكمهم بالإقالات والاغتيالات إلى أن نشطوا فى نهاية هذا القرن، وانتصروا على الفرنجة، وأعادوا "عكا" إلى حيازة الناطقين بالضاد .

ولقد ظهر الفساد الاجتماعى بين معظم الطوائف فى هذا العصر لانصراف المماليك إلى شئونهم الخاصة أو للاقتتال المستمر بين فئاتهم المختلفة أو لانشغالهم بالحرب مع أعدائهم، والعكس هذا على فئات الشعب ، فانتشرت الرشوة فى دواوين الحكومة ، ونهب الموظفون الأموال، وسرقوا المؤن ، واشتد الخلاف بين الفقهاء ، وجار بعض القضاة فى الأحكام ، وكسدت سوق القريض ، وسعى الشعراء إلى حرف متصلة بالشعب ، وتحولوا بفنهم إلى الفكاهة والنكتة والدعابة، وانصرف القليل منهم إلى المدائح النبوية .

البوصيرى :

ولد البوصيرى بصعيد مصر فى سنة ٦٠٨هـ[1] ونشأ بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم بأحد المساجد، وتلقى به بعضاً من العلوم المختلفة فى اللغة والدين والأدب، وافتتح مكتباً لتحفيظ القرآن الكريم، وأنجب أولاداً كثيرين، وتنقل بين مدن مصر وقراها من بلبيس إلى القاهرة، ثم

(١) وقيل سنة ٦٠٦هـ وقيل غير ذلك .

من القاهرة إلى المحلة والإسكندرية إلى أن توفى بالقاهرة فى سنة ٦٩٧هـ[١] وله قبر كبير بالإسكندرية يتصل به مسجد مشهور تدرس به العلوم الدينية .

وفى القسم الأول من حياته مدح وهجا، ووصف وتغزل ثم اتصل فى القسم الثانى من حياته بالصوفية فاتجه إلى المديح النبوى، وله فى ذلك الهمزية والبردة وغيرهما .

ولقد استطاع البوصيرى أن يصور عصره من الجانب الاجتماعى تصويراً كاملاً حتى إذا قرأنا شعره ودرسنا عصره وجدنا التطابق تاماً والصورة صادقة بين الشعر والعصر أو بين الشاعر والعصر أو بين الشاعر والحالة الاجتماعية فى عصره .

وقد نقد البوصيرى كل طوائف المجتمع نقد خبير مجرب، لاتصاله بهم من خلال تنقله بين المدن والقرى، فضلاً عن معاناته من قلة موارده مع كثرة أولاده، ولهذا كان واحداً من الذين أسهموا بنصيب كبير فى النقد الاجتماعى ، وعن هذا الاتجاه من بعض الشعراء قال الدكتور محمود رزق سليم : " لقد تناولوا فى نقدهم السلاطين والأمراء وموظفى الدولة ووزراءها وقضاة الشرع وكتبة الدواوين، ونقدوا التعليم والصوفية، وتقاليد الأسرة إلى غير ذلك"[٢].

---

(١) وقيل سنة ٦١٥هـ وقيل غير ذلك .
(٢) دولة سلاطين المماليك المجلد الثامن ص٢٣٤ .

وسوف نتتبع بعض ما قاله البوصيرى من نقد لطوائف المجتمع، فلربما وضحت الصورة للحالة الاجتماعية فى هذا العصر .

نقد طوائف المستخدمين :

يتحدر نظام الاستخدام فى هذه الدولة من السلطان إلى الوزير ثم إلى موظفى الديوان الذى كان يسمى حتى ذلك الوقت بديوان الإنشاء، ويشرف عليه، وينظم سير العمل فيه طبقة من الكتاب، وقد عمل البوصيرى مع هذه الطبقة، وزاول هذه المهنة فى بلبيس بالشرقية ولكنه أخفق فى وظيفته لعدم معرفته للحساب معرفة كاملة أو لتذمره من الأوضاع القائمة فى ذلك الوقت ، وربما أوقعه هؤلاء الكتاب فى الخطأ من حيث لا يدرى ولا تعجزهم الحيلة إلى ذلك فصب عليهم جام غضبه، وأبان مكرهم وخيانتهم لسائر الناس فقال :

نقدت طوائف المستخدمينا ∴ فلم أر فيهم رجلا أمينا
فقد عاشرتهم وليثت فيهم ∴ مع التجريب من عمرى سنينا
فكُتَّاب الشمال هم جميعا ∴ فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا ∴ بهم فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ∴ ولا شربوا خمور الأُدرينا
بأى أمانة وبأى ضبط ∴ أرد عن الخيانة فاسقينا
ولا تحسب حسابهمُ صحيحا ∴ فإن بخَصْمِهِ الداء الدفينا
أقاموا فى البلاد لهم جباة ∴ لقبض يظهرا كالمقطعينا

ابتدأ البوصيرى هذه القصيدة بالرفض التام لكل تصرفات المستخدمين فهو ينقدهم لخيانتهم، ولسرقتهم أقوات الناس، وهو ليس ظالماً أو متجنياً، فقد عاشرهم، واتصل بهم، ولهذا كان نقده لهم نقد الخبير المجرب الذى ينقد عن مشاهدة ومعاشرة ومتابعة .

إن الشهرة التى اكتسبتها هذه القصيدة لا ترجع إلى قيمتها الأدبية ففيها ضعف وابتذال، ولكن لما فيها من نقد اجتماعى، وتنديد بطبقات المستخدمين، وتصوير صادق للبيئة المصرية، وللحالة الاجتماعية فى فترة من فترات .

قال الدكتور محمود رزق سليم فى تعليقه على هذه الأبيات : "ونلحظ فى الأبيات حرارة الإيمان فى نزعات الشاعر، وصدق إحساسه بمآسى قومه فى دواوين دولتهم، واختلاف طوائفهم، وتنازع هذه الطوائف أموال مصر ، وغير أموالها"[1].

وليس هذا كل ما قاله البوصيرى لنقد الموظفين ورصد حركاتهم وكشف سرقاتهم فإن له الكثير الذى يغرى ويعجب خاصة وأن لبعض هذه النماذج المرفوضة رواتب متعددة من عهد الشاعر إلى أيامنا الحاضرة .

وجاهر برأيه فيهم ، ثم حكم عليهم جميعاً ، فقال :

أرى المستخدمين مشوا جميعا ∴ على غير الصراط المستقيم
معاشر لو ولو جئت عدن ∴ لصارت منهن نار الجحيم

(١) المرجع السابق ص٢٣٧ .

فمـــا مـــن بلـــدة إلا ومـــنهم ∴ عليهـــا كـــل شـــيطان رجـــيم

ولقد امتلأ قلبه بغضاً وكراهية لهذه الطبقة، ودخل معهم فى قتال مستمر، ورأى أن من واجبه محاربتهم ومقاومة طغيانهم ، ثـم تبـرأ منهم لكذبهم وخيانتهم فقال :

برئت من المستخدمين فخيـرهم ∴ لصاحبه أعدى وأدهى وأنكـر
هدرتهم مثـل الرمـاة لكـذبهم ∴ وعندى أن المرء بالكذب يهـدر

وأخذ يحرض عليهم كبار المماليك فقال :

فلا تدن منهم واحدا منك ساعة ∴ ولو فاح من برديه مسك وعنبـر
ويبرد فـؤادى بانتقامـك مـنهم ∴ فقد كان قلبـى مـنهم يتفطـر

ثم دعا عليهم فقال :

فلا بورك المستخدمون عصـابةً ∴ فكم ظالم منهم علـى تعصـبا
إذا ما برى أقلامـه خلـت أنـه ∴ يسن لى ظفرا ونابـا ومخلبـا

وربما يفهم من هذه الأبيات أن الدافع إلى هذا النقد هو الغيرة من هؤلاء المستخدمين والحقد عليهم، فقد كانوا يعيشون فـى رغـد مـن العيش وبسطة من الرزق بينما يحيا الشاعر ــ وكان واحدا مـنهم ــ فقيراً معدماً، لكن الأبيات التالية لا تؤيد هذا الفهـم، وتؤكـد حـرص الرجل على المصلحة العامة ، فقد نقد عاملا "مستخدما" على أسوان ، وهذه البلدة فى أقصى الجنوب بمصر ، ولم يصل إليها البوصيرى لكنه

بالطبع سمع عنها، وعن عاملها المستبد فالنقد ليس موجهاً أو منصرفاً إلى مصلحة ذاتية ولكنه يتعلق بالمصلحة التى تهم كل المصريين قال:

انظر بحقك فى أمـر الـدواوين ∴ فالكل قد غيروا وضع القوانين
الكاتبون وليسوا بـالكرام فمـا ∴ منهم على المال إنسان بمأمون
اكشف بنفسك أسوانا ومن معها ∴ ومن الصعيد بلا قوم مسـاكين
لا تأمنن على الأموال سـارقها ∴ ولا تقرب عـدو الله والـدين

قال شارح الديوان فى حديثه شعر البوصيرى، وفى تعليقه علـى هذه القصيدة المذكورة :

" فما الذى دفع الشاعر إلى الحملة على مستخدمى أسـوان بعـد المسافة بينه وبينهم ؟ لابد أن يكون قد سمع بما وقع على الرعية مـن الأذى والظلم، ومصادرة الأموال، فنظم هذه القصيدة الطويلة، وهى تنم عن ثورة نفسية جاشت بين جوانح الشاعر، فانهال على موظفى أسوان بالمطاعن حتى أنه لم يترك منقصة إلا نسبها إليهم "[1] فالشـاعر لا يبغى إلا الإصلاح التام والنفع العام، وإلا لما وصل نقده، وامتد هجاؤه إلى عامل أسوان وموظفى الصعيد .

والأمثلة التى عرضت لها ــ وهـى قليلـة بالنسـبة لمـا قالـه البوصيرى فى هذا الشأن ــ تؤكد شيوع الفوضى، وانتشار الفساد فـى ربوع المجتمع المصرى، وضعف النظام الإدارى ، وعدم قدرته فـى

(١) الديوان ص٤٠ بتحقيق محمد سيد كيلانى طبعة الحلبى .

نشر العدل بين الناس، فضلاً عن خراب الذمم، وتلوث أيادى المستخدمين بالسرقات والرشا .

والجانب المهم والذى لابد من التأكيد عليه هو اتجاه الشعراء بفنهم إلى خدمة المجتمع من خلال التوظيف الحكومى ، والاحتكاك المعيشى، ومقاومة العيوب والانحرافات من خلال هذا النقد الاجتماعى، وهنا يكون الأدب قد أدى دوره، وقام بمهمته، ووصل إلى غايته من حيث الإمتاع والفائدة.

موظفو الأقباط واليهود :

ونأتى إلى جماعات المستخدمين الذين كان لهم من نقد البوصيرى نصيب كبير وهم المستخدمون من الأقباط واليهود ، فلقد عاش الشاعر بينهم من خلال وظيفته الكتابية ، فعالطهم، وتابع أخبارهم، وتطور خلافه معهم إلى العقيدة، وله فى ذلك شعر كثير فليطالعه فى ديوانه من أراد، ولكن ما يعنينا هنا هو نقده لتصرفاتهم ومهاجمته لدعاواهم الباطلة فى نهب الأموال وغصب الثروات . فقال :

إن النصارى واليهود معاشر ∴ جبلوا على التحريف والتبديل

ولم يقصر هجومه على هاتين الطائفتين بل حمل أيضاً على كتاب المسلمين لأن الرجل يستهدف المصلحة العامة قال :

وكيف نلوم فساقه النصارى ∴ إذا خانت عدول المسلمينا؟

ثم عرض لطرف بسيط من صراع الطوائف بمصر، وتناول المسلمين كما تناول النصارى واليهود على السواء فقال:

يقول المسلمون لنا حقوق ∴ بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر ∴ وإن سواهم هم غاصبونا
وحللت اليهود بحفظ سبت ∴ لهم مال الطوائف أجمعينا

ولهذا لم يبد الشاعر متعصباً لفريق ضد آخر أو لطائفة على حساب الأخرى .

نقد الوزراء وكبار الموظفين :

شمل البوصيرى بنقده الوزراء وكبار الموظفين فعاب تصرفات بعضهم وكشف الأخطاء للكثيرين منهم ، ولنقرأ له :

أمولاى الوزير غفلت عما ∴ يتم من اللئام الكاتبينا
فلا تهمل أمور الملك حتى ∴ يذل الجند للمتقممينا

وليست الغفلة من الوزير شيئاً هيناً مع أن وصفه بالإهمال أشد وأفظع . ولم يرض الشاعر عن تصرفات (ابن عمران) ناظر الشرقية[1] فقال عنه:

وابن عمران وهو شر متاع ∴ للورى فى بطانة وظهارة
يتجنى بسوء خلق على النا ∴ س ونفس ظلومة كفارة

---

(١) ناظر الشرقية أو أى بلد كالمحافظ الآن .

ولقد عاش البوصيرى فى الشرقية، وتنقل بين قراها ومدنها، وله قصيدة يذكر فيها بلبيس ، ويتحسر على الأيـام التـى قضـاها بـين ربوعها، ثم عاب أيضا (ناظر المحلة) وانتقد سلوكه فهجاه وجرسه بعد موته ، ودعا الناس إلى أخذ العبرة من نهايته السيئة قال[1] :

فبانَ نُصْحى لهم إذ مات ناظرهم ∴ وقد بَدَتْ للورى فى موته عِبَرُ
وجرَّسُوه على النعش الذى حملُوا ∴ من الفراش إلى القبر الذى حفروا
وكان جمَّـعَ أمـوالا وعـددها ∴ وظنها لصروف الدهر تُـدَّخر
حَسْبُ المحلـة لمـا زال ناظرهـا ∴ أن زال قد زال عنها البؤس والضرر

وقد انتقم البوصيرى لنفسه ولأهل المحلة من هذا الرجـل بعـد موته بهذا الشعر الفاضح . وحتى يتعظ به كل من تسول له نفسه خيانة الناس .

نقده لتصرفات القضاة والفقهاء :

يأتى نقد البوصيرى للطوائف المذكورة أولاً كتوطئة لنقد القضـاة والفقهاء، مع اتجاهه إلى التصوف لكن ذلك لم يمنعه من التحدث عـن انحراف هذه الجماعات لعظم خطرها، ولأنها تستولى علـى الأمـوال وتنهب الثروات بغثاً باطلة، وأدلة واهية، ولأنها أيضاً بما أوتيت مـن فقه وعلم تطمس الحقيقة، وتزيف فى الشرع لأغراض ماكرة دنيئة .

---

(١) القصيدة فى الديوان ص١٣٥ وما بعدها، وعدد أبياتها مائة وستون .

وقد قرأنا نقده للوظائف الديوانية وسوف نقرأ نقده للوظائف الدينية فمن الفقهاء يعين القضاة، ومن النقاب العالمين بأحكام الدين يعين المحتسبون، ولاتصال هذه الطوائف بالرعية قال البوصيرى ناقداً تصرفات القضاة والفقهاء :

تحيلت القضاة فخان كل ∴ أمانته وسموه الأمينا
وكم جعل الفقيه العدل ظلما ∴ وصير باطلاً حقاً مبينا
وما أخشى على أموال مصر ∴ سوى من معشر يتأولونا

والأبيات اتهام صارخ للفقهاء والقضاة الذين خانوا الأمانة، وصيروا العدل ظلماً، والباطل حقاً، وعمدوا إلى تأويل القرآن الكريم والحديث الشريف تأويلاً يساير أغراضهم وأهدافهم .

وشارك البوصيرى بالرأى فيما أثير من خلاف فى زمن الظاهر بيبرس حول تعيينه لأربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وقد رفض بعض الفقهاء ذلك ، ورأوا فيه تمزيقاً لكلمة المسلمين، بينما رأى البعض فى ذلك توسعة ويسراً، وأيد البوصيرى صنيع الظاهر، ومال إلى تعدد الحكام تبعاً لتعدد المذاهب ورأى أن هذا التعدد نعمة ورحمة وقال فى ذلك :

بهم بنية الإسلام صحت وكيف لا ∴ تصح وهم أركانها والطبائع
تفرقت الآراء والدين واحد ∴ وكل إلى رأى من الحق راجع
فهذا اختلاف جر للخلق راحة ∴ كما اختلفت فى الراحتين الأصابع

وعندما تحول البوصيرى إلى مذهب المتصوفين اشتدت حملتـه على الفقهاء لأنهم كانوا يحرضون الناس على المتصوفة، ولهذا اشـتد الخلاف بين الفئتين، وربما اندفع البوصيرى بسبب ذلك بعض الشـئ على الفقهاء لموقفهم من أهل التصوف .

فكان يرصد خصومه منهم، ويتابع تصـرفاتهم ، ويشـهر بمـا يستولون عليه من أموال الأوقاف .

وله قصيدة ملتهبة على لسان مسجد عبدالظاهر، يشتكى فيها مـن نهبوا مستحقاته، وأكلوا أمواله من غير حق، وعن مناسبة هذه القصيدة تقول مقدمة الديوان :

" وقد حدث أن الملك الصالح نجم الدين الأيوبى الذى تولى مصر سنة ٦٣٧هـ أخرج ثلاثة آلاف دينار لتوزع على طلبـة المـدارس، وعهد فى توزيعها إلى أحد الفقهاء، فلم يوزع شيئاً على طلبة مسـجد الشيخ عبدالظاهر، فنظم البوصيرى قصيدة على لسان هذا المسـجد ، بين فيها أن المال الذى أخرجه السلطان قـد اختلس" ومعـروف أن البوصيرى حفظ القرآن ، وتلقى العلوم فى هذا المسجد بالقاهرة. قال:

ليت شعرى ما مقتضى حرمانى ∴ دون غيرى والإلـف للـرحمن
أترانـى لا أسـتحق لكـونى ∴ جامعا شـمل قـارئى القـرآن
أم لكونى فى إثـر كـل صـلاة ∴ بى يـدعى لدولـة السـلطان

ثم قال :

أنا لا أنسب البهاء على ذا ∴ لك إلا لقلة الإيمان
مد فيها يد الخيانة فامتر إليه بالذم كل لسان

وعندما عرضت على البوصيرى وظيفة "محتسب" رفضها لما يرتكبه هؤلاء المحتسبون من جرائم باسم الدين . ولعلم معرفته بأسرار البيع والشراء وقال :

لا تظلموني وتظلموا الحسبة ∴ فليس بيني وبينها نسبه

وقد يميل إلى الدعابة والفكاهة فى عرض وجهة نظره فيقول :

أوجع زيداً ضربا وأشيعه ∴ سبا كأني مرقص الدبه

وهكذا بدا لنا البوصيرى صادقاً جريئاً غير متعصب لطائفة أو لجماعة، أو لأهل إقليم دون آخر ، وكان شعره الاجتماعى ترجماناً للبيئة المصرية، وتعبيراً عما يجيش فى صدور المكدودين الذين قهرهم الفقر، وأذلهم الحرمان .

— ٢ —

وربما يفهم (مرة أخرى) مما عرضنا له من أمثلة أن الرجل لا يهتم إلا بنقد العيوب وتجسيم الأخطاء، ولا يمتدح الأعمال العظيمة ، ويبدو بذلك مماريا مبغضا لكل شئ فيكون ذلك إساءة له، خاصة وأن الناس قد عرفوه بقصائده العظيمة فى مدح الرسول ﷺ وللدفاع عن الرجل، وإحقاقاً للحق حرصت على عرض بعض شعره الذى أشاد فيه ولم يهاجم ، ومدح ولم يشوه لتكتمل الصورة بكل ظلالها وألوانها .

قال مادحاً لناظر جديد على المحلة ومشيداً ببعض ما قدم لأهلها :

فطهر وجه الأرض من كل فاسد ∴ وما خلته من قبله يتطهر
ومهده للسالكين من الأذى ∴ فليس به الأعمى إذا سار يعثر
أنام الرعايا فى أمان وطرفه ∴ لما فيه إصلاح الرعية يسهر

ويتجه إلى الممدوح بالخطاب فيقول :

وأقبلت تحيى الأرض بعد موتها ∴ وفى الجود ما يحيى الموات وينشر
فها هى تحكى جنة الخلد نزهة ∴ ومن تحتها أنهارها تتفجر
وأعطيت سلطاناً على الماء عالياً ∴ به يزخر البحر الخضم ويسجر

فلقد نشر الممدوح الأمن بين ربوع البلاد، ومهد الطرق للسالكين، وقضى على اللصوص والخونة وقطاع الطرق حتى نامت الرعية فى أمن وأمان بينما هذا الناظر يسهر على راحة الناس ، ثم انصرف إلى

الأرض فأحيا مواتها وحولها إلى جلة خضراء تتفجر منها المياه لتروى الزروع والثمار .

وللبوصيرى أشعار كثيرة فى هذا الجانب عرض فيها لمشكلات البيئة ومتطلبات الرعية من خلال فن المدح الذى برع فيه، فكان ينتهز المناسبة ليشيد بالأعمال العظيمة وينبه إلى حاجات أهل الريف الذين عاش بينهم ، وتعرف على أحوالهم ، وألم بشئونهم .

وقد قرأنا فى ديوانه شعراً كثيراً يمتدح فيه السلطان وبعض الأمراء لبناتهم للمدارس والمستشفيات محبياً كل عمل صالح يعود نفعه على الناس .

وهكذا استطاع الشاعر أن يعبر عن البيئة المصرية بكل طوائفها وفئاتها خير تعبير .

— ٣ —

للبوصيرى قصيدة طويلة رفعها إلى أحد الوزراء[١] يشتكى فيها حاله، ويتحدث عن مشكلاته الخاصة فى جرأة وصراحة، وقد لجأ فيها إلى الدعابة المضحكة فشر البلية ما يضحك . وقد وصف فى هذه القصيدة حال أسرته عندما تأخر راتبه فى شهر رمضان، وذكر فيها ما نجم عن ذلك من نزاع وشقاق بينه وبين زوجته، ولهذه القصيدة تحليل جيد فى كتاب "عصر سلاطين المماليك"[٢] للدكتور محمود رزق سليم فضلاً عن وجودها بالديوان وليرجع إليها فى مظانها من أراد .

وسوف أعرض لعدد بسيط من أبياتها تستكشف منها بعض ما تعانيه أسرة مصرية عند حلول شهر رمضان والعيد فى إحدى سنوات القرن السابع الهجرى .

قال البوصيرى :

إليك نشكو حالنا إننا ∴ عائلة فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى ∴ جرى عليهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم ∴ كانوا لمن أبصرهم عبرة
إن شربوا فالبئر زيزٌ لهم ∴ ما برحت والشربة الجرة
لهم من الخبيز مسلوقة ∴ فى كل يوم تشبه النشرة
أقول مهما اجتمعوا حولها ∴ تنزهوا فى الماء والخضرة
وأقبل العيد وما عندهم ∴ قمح ، ولا خبز ولا فطرة
فكم أقاسى منهمُ لوعةً ∴ وكم أقاسى منهم حَسْرَة

(١) هو بهاء الدين بن على .
(٢) عن سلاطين المماليك المجلد الثامن ص

والمعنى فى هذه الأبيات واضح لا يحتاج إلى استجلاء وكشف، وربما كانت هذه الحال معبرة عن أسرة البوصيرى، وعن حال الآلاف من الأسر التى تقل مواردها أمام العادات والتقاليد الموروثة فتنشأ النزاع ويشتد الخلاف ، ولازلنا نرى فى ريفنا المصرى نماذج كثيرة تشبه فى معاناتها أسرة البوصيرى وقد تزيد عليها .

وفى تعليق للدكتور محمود رزق عن هذه الأبيات قال : "هذه أبيات مريرة، وإن تخللتها الفكاهة وسطور باكية وإن مازجتها النكتة، وحكاية فيها العاطفة الحانية والأمل المرجو ، والأثرة الجاهلة، والغيرة القاتلة، والوشاية الحمقاء ، والحيلة الضعيفة، والشكاية اليائسة، والعادة المفترسة واللهفة المتحسرة والتساؤل المحرج"(١).

وفى نهاية هذه القصيدة الصادقة يحكى الشاعر ما دار بينه وبين زوجته من خصام وعراك إلى أن قذفته مأجرة وهددها بالطلاق إلى أن نامت الفتنة ، وهدأت الثورة بعد ليلة طويلة دب فيها الشقاق والنزاع حول مقتضيات رمضان والعيد .

---

(١) عصر سلاطين المماليك المجلد الثامن ص٢٤٠ .

— ٤ —

من المتابعات السابقة نرى اهتمام البوصيرى بالدعابة المضحكة التى تترك أثرها فى النفوس، وقد ظهر ذلك فى القصيدة التى وصف فيها حال أسرته فى شهر رمضان، وربما لجأ إلى التهكم والسخرية حتى سخر من نفسه ومن نظام حياته مثلما سخر من جماعة الموظفين أو من القضاة والحكام المتجبرين.

وهو فى شعره الاجتماعى يختلف اختلافاً كبيراً عنه فى شعره الدينى وبخاصة قصيدة البردة والأبيات فى اللون الاجتماعى سهلة والأفكار واضحة والألفاظ سائغة، والمعانى مبتذلة، والقيمة الحقيقية لهذا اللون تتمثل فى أهميته كوثيقة اجتماعية وكثورة على الأوضاع القائمة فى ذلك الوقت، وقد تابع البوصيرى فى هذا الاتجاه عدد قليل من الشعراء، ومن هذا العطاء القليل أمكن التعرف على جوانب كثيرة من نظام الحياة فى هذا العصر.

والبوصيرى على كل حال رائد فى هذا المجال — مع ضعف شعره فى هذا اللون — كريادته أيضاً فى المدائح النبوية شكلاً ومضموناً على السواء.

بين البوصيرى ومعاصريه :

لقد انصرف بعض الشعراء فى هذا العصر إلى النقد الاجتماعى، وكانوا ألسنة صادقة فى التعبير عن معاناة الشعب، وقد وجدوا فى نظام الحياة التى يحيونها تحت حكم المماليك ما يشجع على هذا النقد.

ونذكر منهم شهاب الدين الأعرج الذى حمل على الترك والسلطان فقال:

وكيف يروم الرزق فى مصر ∴ ومن دونه الأتراك بالسيف والترسِ
وقد جمعته القبط من كل وجهة ∴ لأنفسهم بالربع والثمن والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها ∴ وللقبط نصف والخلائق فى السدس

فلقد جعل الشاعر لأهل مصر سدس الأموال، وجعل الباقى من نصيب الترك والسلطان والقبط ، وهذا الذى اشتكى منه الشهاب بيع منه أيضاً صوت البوصيرى، وإن كان قد أضاف فريقاً آخر إلى من ذكرهم الشهاب وهم جماعة المستخدمين.

ومع تقدم الزمن فى هذا العصر زادت حركة النقد الاجتماعى، وعلا صوت الشعراء فى جرأة وشجاعة ، ومن الأصوات المخلصة التى هبت لمقاومة العبث والفساد صوت الشاعر جمال الدين المليونى الذى نقد القضاة، وندد بتصرفات بعضهم حتى سجن عامين بسبب قصيدة واحدة .

وقد اتجه الشعراء إلى عيوب المجتمع وسلبياته فجاهروا بها، وأعلنوا الثورة عليها، وربما قاطع بعضهم منهج المماليك فى الحكم ، وأثر العزلة لفساد الأوضاع الاجتماعية ومن هؤلاء ابن الوردى (٦٨٩هـ ـ ٧٤٩هـ).

وهو من شعراء هذا العصر، ومن أكثرهم حكمة ومثلاً ونصيحة، وله شعر كثير فى الزهد وفى مدح الرسول، وكان يعمل قاضيا، ثم اعتزل الحياة ولجأ إلى الزهد ، وآثر حياة الخمول ومن شعره القليل فى مجال النقد الاجتماعى ما قاله متفكهاً وساخراً من أحد القضاة:

لا تقصد القاضى إذا أدبرت ∴ واقصد من جواد كريم
كيف ترجى الرزق من عند من ∴ يفتى بأن الفلس مال عظيم

ويبدو أن الفساد قد استشرى بين القضاة حتى نقدهم، وكشف عن مخازيهم معظم الشعراء الذين اهتموا بالبيئة المصرية، ولعل فى كل هذه الأمثلة ما يؤكد صدق البوصيرى فى دعاواه إذ كان بين الناس بمثابة مصلح اجتماعى يتتبع عيوب المجتمع فينبه إليها ، ويدعو لمقاومتها والقضاء عليها، مع الإشادة بالأعمال العظيمة ، وبالرجال الذين يخدمون البيئة فى عهد المماليك .

خاتمة

يتضح لنا من دراسة شعر البوصيرى بخاصة، وشعر زملائه من شعراء العصر المملوكى بعامة أن الشعر قد تخلف عن مستواه فى ما قبله من العصور، وأن الأسلوب الفنى كان فى حاجة إلى مزيد من الصقل والاهتمام، لأن شعراء هذا العصر قد أولعوا بالتعبير العادى عن الأفكار من غير أن يسمحوا للخيال بأن يوشى التعبير بألوان من الصور الزاهية وهذا يدفعنا للتساؤل عن سببه، وأغلب الظن أن خلو العصر من نقاد للأدب ذوى ثقافة رفيعة كالآمدى والجرجانى والباقلانى كان مدعاة هذا القصور الشعرى، لأن الناقد الأدبى يحمل مرآة التوجيه والإرشاد ! ولا ننكر أن بعض النقاد كانوا من رجال هذا العصر ، ولا زالت أعمالهم خالدة مع الزمن، وشاهدة على الجهد والعطاء ولكنهم مع ذلك لم يبلغوا المستوى اللائق بالتوجيه، إذ جاروا الشعراء فى اتجاهاتهم وكان عليهم أن يرتقوا بهم ، ومهما يكن من شىء، فقد كان العصر عصر العلم المستوعب الجامع لا عصر الأدب الناقد المتوهج .

أهم المراجع

١ــ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان جـ٣ طبعة دار الهلال
٢ ــ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ــ السيوطى طبعة الحلبى .
٣ ــ دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر : د. عبدالمنعم حامد جـ١ الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٤م.
٤ ــ ديوان البوصيرى ــ تحقيق محمد سيد كيلانى ــ طبعة مصطفى الحلبى.
٥ــ عصر سلاطين المماليك د. محمود رزق سليم المجلد الثامن.
٦ ــ فصول فى الشعر ونقده د. شوقى ضيف دار المعارف سنة ١٩٧٧م.
٧ ــ فوات الوفيات ابن شاكر الكتبى ، دار الثقافة بيروت .
٨ ــ المدائح النبوية فى الأدب العربى د. زكى مبارك ــ دار الشعب.

أبو القاسم الشابى
صوت مفرد فى سماء الشعر

تشحذ الذاكرة القومية ألسنتها، وتضمد جراحها وهى تودع القرن العشرين ٠

ويذكر نقاد الأدب ورواده أبا القاسم الشابى الشاعر الرومانسى المحلق فى الآفاق العربية ، ذلك الفتى الأسمر النحيل الذى جاء إلى الدنيا، ورحل عنها فى جزء قصير من الزمن بمقياس حياة الشعوب ، وجمع ديوانه (أغانى الحياة) وتركه وديعة للزمن إلى أن صدر فى عام ١٩٥٤م بعد عشرين سنة من وفاته بمقدمة ضافية من شقيقه محمد الأمين الشابى٠

وقد ارتبطت أغانى أبى القاسم فى مكنون أعماقه بتراث الأمة الذى جمعت أغانى أبى الفرج جزءا من مكوناته، وارتبطت بأغان مصرية أخرى لمحمود حسن إسماعيل شاعر النيل والنخيل والتربة السمراء ، وبأشعار كثيرة للرواد من مدرسة أبوللو فى كل مكان٠

لقد برز الشابى فى ساحة الإبداع الشعرى ، واختزن مذكورات الأمة فى أعماقه، وضم إلى كل ذلك رغبته فى التجديد وقدرته عليه، وقفز بشكل القصيدة ومضمونها قفزات كبيرة ورائعة فى مرحلة قصيرة وخطيرة إبان الثلث الأول من القرن العشرين إذ هصر القدر غصنه الرطيب فى التاسع من أكتوبر ١٩٣٤م بتونس العاصمة بعد خمسة وعشرين عاما هى كل حياته، ثم نقل جثمانه فى اليوم التالى إلى

مسقط رأسه بالشابية إحدى ضواحى مدينة توزر تلك المنطقة الوادعة التى تقبع فى أحضان الجنوب التونسى الرحيب، وورى التراب لتطوى صفحة الحياة لشاعر حل ضيفا على الدنيا، وارتحل منها، ولم تطل إقامته بها، وعاش حياته القصيرة مثقلا بهموم أمته منذ أن راجع التاريخ القريب، وشاهد الواقع المرير الذى يسجل سقوط أكثر البلدان العربية فى براثن الاستعمار الغربى، ولم يكن الاحتلال الفرنسى لتونس فى عام ١٨٨١م إلا حلقة من حلقات الرغبة العارمة لدى الغرب فى استيلائه على بلدان الشرق واحدة تلو الأخرى .

ولم تكن تونس آنذاك تخضع للسيطرة الفرنسية فحسب ، وإنما شملها حكم مزدوج قمعى؛ مع بداية القرن العشرين، يجمع بين الفرنسيين أولا، ويشارك فيه من يسمى بالباى، ولكى نتعرف على هذه الشخصية ونظام حكم البايات ننقل عن كتاب للأستاذ رجاء النقاش بعنوان (أبو القاسم الشابى شاعر الحب والثورة) وجاء فيه :

" والباى هو الذى ورث الحكم عن أسرته المعروفة باسم الأسرة (الحسينية) التى ظلت تحكم تونس منذ سنة ١٧٠٥م إلى سنة ١٩٥٦م حيث أعلنت الجمهورية التونسية، وتم خلع آخر "البايات".

والباى كلمة تركية كانت تطلق على حاكم تونس عندما كانت خاضعة للأتراك، وهى كلمة تشبه الخديوى فى مصر[١].

---

(١) أبو القاسم الشابى ــ رجاء النقاش صـ٧، ٨ دار المعارف بمصر .

واستسلم الميدان التجارى لليهود بمعاونة الفرنسيين، أما الطامة الكبرى فقد شملت التعليم الذى وجه لخدمة المحتل حيث لم ينتظم فيه إلا نسبة قليلة من أبناء تونس.

وهل معنى ذلك أن الحياة كانت مظلمة تماما ؟

كلا ! فقد انبعثت بعض الأنوار القادمة من الشرق حيث يحيا إلى الأزهر فى مصر بعلمائه ومثقفيه ورواد الفكر فيه والوافدين إليه كالشيخ جمال الدين الأفغانى فضلا عن عدد لا يستهان به من مشايخ جامع الزيتونة الذين كانوا يتحاورون مع العلماء القادمين إليه حول قضايا الثقافة والفكر والمعتقدات السياسية، ولكن التوجه العام لهؤلاء الرواد قد انطلق إلى النورة على الأوضاع بعمامة الدين وحق الوطن وعبق التاريخ .

ولقد ولد أبو القاسم بتلك البيئة القلقة المضطربة فى الرابع والعشرين من فبراير عام ١٩٠٩م فى بيت يشع منه العلم والنور والإيمان بمصابيح والده محمد أبى القاسم الذى كان يعمل قاضيا شرعيا، وتمتلئ داره بالرواد، ويكثر فيها النقاش والحوار حول العديد من القضايا الفكرية والدينية والأدبية ، والتى تزخر بها كتب التراث ومؤلفات القضاء .

ودفع به والده لمكتب تحفيظ القرآن وهو فى الخامسة، وأتم حفظه فى التاسعة، وبقى عامين آخرين فى الشابية ينهل من كتب الدين واللغة

والتصوف والفلسفة التى وجدها بمكتبة والده، فصار مجهزا لمرحلة أخرى من حياته .

انتقل أبوالقاسم فى الحادية عشرة من عمره إلى معهد علمى راق تقترب مناهجه بما يقدم فى مجالس الدرس بالأزهر ، وذلك هو جامع الزيتونة بتونس (العاصمة) الذى استمرت دراسته به حتى تخرج منه بعد سبع سنوات من القراءة والبحث وكد الذهن وإعمال الفكر وشحذ القريحة وتيسر له أن يطلع على أعمال شعراء المهجر وقراءة التراث العربى والأعمال المترجمة لشعراء الغرب.

وزاد إحساسه بالألم على ما لحق بأمته، ونمت موهبته ، واستوت ملكة الفن لديه، وبدأ فى نشر إبداعاته بتونس، ثم فى خارجها، وصاغ تجربته الشعرية والتى لقيت بعض المعارضة ممن يتعصبون للقديم، ورصد ظواهرها وملامح التجديد فيها بقلمه النثرى، وقدم محاضرة عن (الخيال الشعرى عند الغرب) وسيطرت أحزانه لواقع الأمة وحاضرها الممض ، وانضم إلى كوكبة الشعراء العظام فى مصر والشام والعراق، وسار هواؤه مع بعض رياح التجديد التى هبت من الشرق محملة بكل توجه حميد تنشده مدرسة أبوللو، فتجاوبت تجربته مع الرغبة فى صياغة فن جديد، وبدأ يبحر موضوعات الشعر القديمة، ويهجر معها كل العبارات الفارغة، والتقاليد العرجاء والنغمة الخطابية الجوفاء، ولكن هذه الثورة على بعض القديم، وما يتبعها من رغبة فى

التجديد أوصلت علاقته بمعاصريه إلى حافة الهاوية فـزاد إحساسـه بالغربة والضيق والمعاناة ٠

فقال فى بعض مذكراته :

" أشعر أنى غريب فى هذا الوجود، وإننى ما أزداد يوما فى هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعورا بمعانى هاتـه الغربـة الأليمة، غربة من يطوف مجاهل الأرض، ويجوب أقاصى المجهـول، ثم يأتى ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدا منهم يفهم مـن لغة نفسه شيئا " ٠

ثم يصرخ فى صوت منخفض ، ولكنه مليئ بالألم :

" الآن أدركت أنى غريب بين أبناء بلادى ... وتلك مأساة قلبـى الدامية[١]".

ونفتتح ديوان شعره باختيار يعبر عن هذا الإحسـاس بالغربـة : قال فيه:

أيها الشعب ليتنى كنـت حطّابـا ∴ فأهوى على الجـذوع بفأسـى
أنت روح غيبـة تكـره النـور ∴ وتقضى الدهور فى ليل ملـمس
إننى ذاهب إلى الغاب يا شـعبى ∴ لأقضى الحياة وحدى بيأسـى
ثم أنساك ما استطعت فما أنـت ∴ بأهـل لخمرتـى ولكأسـى[٢]

---

(١) السابق ص٣٧ ٠
(٢) ذكرها النقاش فى كتابه ص٣٧ ٠

لم يخلع الشابى عباءة التراث ، ولم يستسلم له تماما، فخط بمداد شاعريته ألوانا من التجديد فى اللغة والصورة والموسيقى حريصا على تصوير البيئة وتضميد جراحها .

وفى الوقت الذى بدأ المرض[١] يعبث ببدنه فقد شاعر الشابية والده فى عام تسعة وعشرين وتسعمائة وألف، فكان الحدث نكبة طاغية استسلم معها أبوالقاسم للحزن، وزاد همه بتبعات الأسرة، ومشقات العلة وهموم النفس، وزاد ألمه بما لحق به فى شرخ شبابه، وتحول فكره إلى بحث عميق فى فلسفة الحياة، وما كان لنفسه أن تهدأ وهى ترى نذر الموت تحيط به معلنة عن قرب النهاية تلك اللواعج التى شغلت النقاد فكتب عنها الدكتور شوقى ضيف قائلا :

" وتصادف أن كان إحساس أبىالقاسم جادا، وجعلته جدته محبا للحياة، وشعر برعوس أفاع تمتد إليه فى طريقه، فتمنعه من المسير بل ترده إلى داره إن لم يكن إلى فراش علته، فرجع محزونا يجرر أذياله والكآبة قد ملأت نفسه، وملأها أيضا الإحساس الدقيق بالكارثة وما ينتظره من موت عاجل محتوم"[٢].

وزاد إقباله على الشعر فأخذ يشدو بالناى الحزين، هاربا إلى الطبيعة، أو فارا إلى بحث هموم النفس وأثقال الحياة، وتحولت هواتف الغيب إلى أغان رومانسية مجللة باللوعة والأسى.

---

(١) كان أبوالقاسم مريضا بتضخم فى القلب .
(٢) دراسات فى الشعر العربى المعاصر د. شوقى ضيف صـ١٤٤ (دار المعارف بمصر ١٩٧٤م).

لقد كان يضع الثلج فوق صدره لتبرد نيران قلبه وآلام صدره، وهو يشهد شمس حياته تتوارى خلف الغيوم ، وأوراق حياته تذبل ولا يجدى معها ماء ولا رواء، فقد بدأت تتساقط، وأخذ المرض يقهر نشاطه وقوته وحيويته، ويغفو فيغيب بين الغصون مستسلما لهجمة الكرى وطيف المنون، ويضحو على أناشيد الوداع ، فيرثى نفسه مناجيا الموت الجسور، قال :

أرأيت أم الطفل تبكي ذلك الطفل الوحيد
لما تناوله يغني فساعد الموت الشريد
أسمعت نوح العاشق الـ ولهان ما بين القبور
يبكي حبيبته فيا لمصارع الموت الجسور[1]

وينتقل من الغاب الموحش إلى الليل الدامس بما فيه من بؤس وهول وشقاء، فيناجيه مصورا محنته وشقاءه، وأمواج ظلامه، فجاءت أشعاره في الطبيعة ذات أحمال ثقال تذوب معها الرومانسية بمصارع الناس والهروب إلى الغارب مما جعل ديوانه مزيجا من الأمل والألم والحزن على مجتمعه الذى تفتحت عيناه على أرزائه، وكذلك على نفسه التى خضعت لمحاسبة ومراجعة دقيقة، وهكذا صاغ تجربته في ديوانه (أغانى الحياة) .

---

(١) السابق ص١٤٨ .

ويخطئ من يظن أن أحزانه حجبت رؤيته على مصائر الوطن فقد كان يهتف بأعلى صوته مرددا أنشودته الرائعة (إرادة الحياة) والتى كنا نصيح بها فى مرابع الصبا ومدارج العلم، ولا زالت معبرة عن رفض الشعوب لكل غاز دخيل ، قال :

إذا الشعب يوما أراد الحياة ∴ فلابد أن يستجيب القدرْ
ولابد لليل أن ينجلى ∴ ولابد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة ∴ تبخر فى جوها واندثر

وقال :

إذا ما طمحت إلى غاية ∴ لبست المنى وخلعت الحذر
ولم أتخوف وعور الشعاب ∴ ولاكية اللهب المستعر
ومن لا يحب صعود الجبال ∴ يعش أبد الدهر بين الحفر[1]

أما رغبته فى الحياة فلا يعدل أى شعر ــ فى أكبر الظن ــ قصيدته المعروفة بنشيد الجبار ، والتى كان الدكتور محمد مندور يرددها قبل وفاته ، تلك الأنشودة التى جأر بها الشابى فقال :

سأعيش رغم الداء والأعداء ∴ كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئا ∴ بالسحب والأمطار والأنوار
لا أمسح الظل الكئيب ولا أرى ∴ ما فى قرار الهوة السوداء
وأسير فى دنيا المشاعر حالما ∴ غردا وتلك طبيعة الشعراء

(١) السابق ص١٥٢ .

وتسكن جراحه وتهدأ منازعه ، ويعد نفسه للوداع، وتضعف شرايينه، ويجف دموعه، وتتوارى أحزانه فيغنى أو يبكى بعد أن استوى لديه نوح الباكين وترنم الشادين ، فيودع الدنيا وتونس والشعر، ويتوارى جثمانه، ويبقى فنه ويحفظ الناس أغانيه، ويحملون كتبه ومذكراته، ويتبادلون رسائله ومحاضراته .

ويخلد فى وجدان الوطن الذى شغل نفسه به أكثر مما شغل بزوجته وطفليه الذين لم يذكرهم أحد؛ لأن المثقف العربى الذى قرأ لأبى القاسم الشابى فى سنوات القرن العشرين لم يجد بين تلك الحقبة شاعرا ترك الدنيا فى مثل هذه السن وقد خلف زاد حيا وفنا صادقا وشعرا نابضا تجتمع فيه أصالة التراث وتجديد المحدثين، ويتبع منه كل إحساس بالألم والحزن والاغتراب .

شعر الفصحى

بين التقليد والتجديد[1]

مدخل تحدث القدماء والمحدثون عن أولية الشعر العربى، وأرجع الجاحظ بدايته إلى ما يقرب من مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وذكر بروكلمان أن بداية الكلام الفنى المنمق كانت نثراً فنياً تتفق فواصله فى الحرف الأخير، ذلك النسق الذى اختار البلاغيون له اصطلاح (السجع)، ثم تولد منه الرجز، والذى انبثقت منه البحور الشعرية الأخرى.

ولقد خضع النظام الشعرى فى بواكيره المتقدمة لأنظمة ثابتة من حيث الشكل الذى يتمثل فى الأوزان والقوافى والألفاظ والتراكيب، ومن حيث المضمون الذى صاغه الشعراء فى القوالب الفنية المتوارثة من جيل لآخر، حتى وصلت مسيرة الشعر إلى مرفأ الحياة المعاصرة فى رحلة طويلة شاقة، وسط هدير الأمواج وعواصف الأيام. وتعرض الشكل لكثير من ظواهر التمرد والجموح خاصة فى الوزن الذى لم يكن تجديدا بقدر ما كان خرقا للنظام تجاوز مرحلة الطفولة ، وابتدأ عهد الشباب المبكر أيام (عبيد بن الأبرص) شاعر بنى أسد، وصاحب القصيدة المشهورة :

أقفر من أهله ملحوب ∴ فالقُطَبِيَّات فالذَّنُوب

---

(١) بحث مقدم لمؤتمر الشرقية الأدبى المنعقد فى مدينة الزقازيق أيام ١٣، ١٤، ١٥ من أبريل ٢٠٠٢م .

فـــــــراكس ، فثعالبـــــــاتٌ ∴ فـــذات فـــرقين فالقليـــبُ[1]

وقد جمع فيها بين أنواع متعددة من مجزوء البسيط ، حتـى رأى البعض أنها شعر مختل الوزن، فقال أبو العلاء المعرى فى شعر عبيد:

وقد يخطئ الرأى امرؤ وهو حازم ∴ كما اختل فى وزن القريض عبيد[2]

وشرع البعض فى عصور تالية فى إظهـار براعتـه وتفوقـه، فرض على نفسه التزامات إضافية إلى القواعـد التقليديـة الخاصـة بالقافية، وكان أبو العلاء مقدما فى هذا الخروج علـى النسـق القـديم، وصاغ منه ديوانا ضخما تصل عدته إلى عشرة آلاف بيت .

وقد خضعت القافية لمزيد من التطوير والتجديد ، وظهرت لهـا أنساق جديدة لم يسبر غورها القدماء، وتعالـت الأصـوات اللاهجـة بالدعوة إلى تنوعها ، والخروج بها من دائرة البيت إلـى السـطر أو الجملة ، وبدأ التمرد على النظام التقليدى للقافية بأوزان وطرق جديدة، وتجلى فى طرق عديدة مثل المزدوج ، والمشطر، وهذا الأخيـر لـه صور كثيرة.

وكانت الموشحات من أشهر الدعوات إلى الانفلات مـن عمـود الشعر العربى، ثم انتقل الوزن التقليدى إلى مرحلة جديدة فـى القـرن العشرين مع موجة الشعر الجديد المسمى بالشعر الحر الذى لم يتوقف

---

(١) ملحوب: اسم ماء لبنى (أسد) ، والقطبيات مفردها قطبيـة موضـع مـاء ، وانظر كتاب شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٣٦٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥ .

التطور فيه عند مرحلة معينة ، وقد قوبل بموجة من الرفض فى بداية ظهوره ، وما زال البعض لا يستسيغه ، ولا يقتنع به ، لكنه صار واقعا لا يمكن إنكاره، وكيف ينحى عن ساحة النقد، وصوت قصيدة النثر يزداد من يوم لآخر بدعوى الحداثة والتجديد .

أما اللغة الفصحى فلم تكن بهذا القدر من التحول فقد بقيت على موروثها القديم وزنا ونحوا وصرفا وبلاغة؛ إذ إنها اللغة التى أفصح بها العربى قبل الإسلام ، وهى التى وسعت كتاب الله ، وحفظت تراث المسلمين ، لكن أمورا كثيرة أسهمت فى نمو لغات أخرى ولهجات متعددة ، تختلف من إقليم لآخر، وربما تتنوع فى الإقليم الواحد ، وأطلق عليها اصطلاح (اللهجة العامية)، وصارت اللغة الفصحى قسيما لها.

ومما أسهم فى نمو اللهجة العامية دخول بعض الكلمات الأجنبية فيها مما ساعد فى تحريف اللغة الفصحى ، لكنها لم تتراجع، ولم تمح من ذاكرة الواقع؛لخضوعها لقواعد النحو والصرف والإملاء، وتنوعت الأقاليم الناطقة بالفصحى مما جعل أهلها يتفاوتون فى مقدار تمسكهم بها، على أن هذه الأمور أسهمت فى تكوين اللهجات العامية التى لم تكن قاصرة على النطق والتعامل اليومى ، وإنما دخلت ساحة الكتابة الأدبية، وظهر ذلك فى أزمنة كثيرة، وفى نماذج أدبية عديدة مثل بعض القصص والمسرحيات والقصائد والأزجال والموشحات.

وهكذا صارت الفصحى التى عاشت حياتها لغة وحيدة للتـأليف العلمى والصياغة الأدبية تواجه تمردا لا فى النطق فحسب ، وإنما فى الكتابة أيضا، وأصبح الأدب الشعبى غير قاصر على المـوال، وإنمـا تجاوزه إلى بعض الفنون الأخرى مثـل الشـعر والقصـة، وتعالـت الأصوات المطالبة بكتابة الحوار فى المسرحية باللهجة العاميـة،ادعاء بأنها لغة الحديث، وأن الواقعية تفرض النطق والتعبير بها،وأن كثيـرا من الأغانى والأناشيد تخاطب العامة فمناسب أن تكون مصاغة بلهجة يفهمونها، ويتجاوبون معها .

يقول أحد الباحثين عن «علاقة الفصحى بالعامية :

" إن الفصحى ــ وهى لغة مكتوبة غالبا ــ تعد معبرا عن الوحدة السياسية للعالم العربى، بل هى أيضا المقوم الأساسى للوحدة فى كـل قطر ، وهى تحظى بمكانة خاصة أقرب إلى التقديس عند الناس جميعا ، فهى لغة الدولة بكل هيئاتها ، وهى لغة التعليم بكل مراحله ، وهـى لغة العلم بكل فروعه ، وهى اللغة التى نعلمها لمن يريد تعلمهـا مـن الأجانب، ومن ثم فإننا نعدها قرينا للغـات الأخـرى، ومعبـرا عـن شخصية الأمة . أما العامية وهى لغـة منطوقـة فحسـب ، فتختلـف باختلاف الأقطار بل وتختلف باختلاف المناطق فى القطر الواحـد ــ وهى ترتبط بالأمية، وبأداء الحاجات العملية البسيطة ومن ثم فإنهـا لا

تمثل أداة كافية للفكر الراقى ... "[١] على أن إيراد بعض الكلمات العامية أو الأجنبية فى الأسلوب لا ينال من الفصحى، ولا يجعل منها لغة عامية أو أجنبية،وأن تطور اللغة أمر لا ينبغى إغفاله، كما لا ينبغى أيضا إغفال الآداب الشعبية التى صيغت بلهجات منشقة من الفصحى وليكن ذلك فى نطاق ضيق، ما دامت العامية منتشرة فى لغة الحديث التى تختلف من إقليم لآخر، وليست واحدة مثل اللغة الفصحى، وهكذا لم يسلم شعر الفصحى من ظواهر متعددة خرجت به من دائرته القديمة إلى مجالات مختلفة ، ونماذج متنوعة تختلف فى الحاضر عن الماضى فى الشكل والمضمون .

وشهد الكثيرون بمرونة اللغة الفصحى بسبب وجود الإعراب فيها على عكس اللهجات العامية التى سقط الإعراب منها، وصار من المؤسف أن تنمو رغبة أو دعوة لتوسيع نطاق الكتابة بالعامية وعدم الاكتفاء بها فى مجالات أدبية محددة .

ولقد كتب الدكتور / محمد غنيمى هلال فصلا بعنوان (واجبنا نحو اللغة) حذر فيه من اتساع الفجوة التى تفصل بين الطوائف التى تنشد فيهم اللغة تحريرها ونهضتها ، ودعا لضرورة الحفاظ على اللغة الفصحى [٢] .

---

(١) من مقال بعنوان [الفصحى والثقافة العربية المعاصرة] للدكتور محمد حسن عبدالعزيز ، منشور بالمجلد الخامس من محاضرات نادى جدة الأدبى عام ١٩٨٨م ، ص ٣٣٧ .

(٢) انظر كتاب (قضايا معاصرة فى الأدب والنقد ص١٧٢) .

لقد خضع الشعر التقليدى للقواعد المتوارثة ، وبالغ فيها معظم شعراء العصر العثمانى إلى أن جاء (محمود سامى البارودى) فلم يرض بالاتجاه السائد فى عصره بما فيه من تكلف ممقوت فى الشكل والمضمون ، وسلك منهجا تجديديا عرف بالبعث والإحياء ، فعاد إلى العصر العباسى، وإلى الحقبة التى كان الشعر فيها قويا متميزا ، وسار على دربه جماعة من الرواد الذين حافظوا على جزالة الديباجة، ونحت الشعر من (رخام) اللغة كما تنحت التماثيل، ومن أشهرهم (أحمد شوقى) و(حافظ إبراهيم) و(عزيز أباظة)٠

وحرص ــ فى اتجاه آخر ــ جماعة من المجددين للشعر التقليدى منهم (عباس العقاد) وأتباع مدرسة الديوان الذين لم يتخلوا أبدا عن القواعد المستقرة ، ولم يرضوا عن الشعر المنثور الذى بزغ نجمه فى سماء الشعر المهجرى، وكثرت الجماعات المجددة مع اختلاف بين دعاتها مثل أبولو والغربال٠

ومن هؤلاء التقليديين (على اختلاف درجاتهم فى التجديد ومذاهبهم فى الرؤية والمضمون) من خضعوا للعروض القديم ، ومن خرج عليه ، أو جدد فيه وكان خروجه استجابة للذوق الموسيقى، وقد كتب عزيز أباظة مقدمة لديوان الشاعر / عبدالله شمس الدين، حدد فيها جانبى الصراع بين القديم والجديد، أو بين التقليد والتجديد فى أمرين هما :

الموسيقى ، وطرائق التعبير . ولم يجد كثير من الشعراء ضيرا من التجديد فى الأوزان الشعرية ، فظهر الشعر المرسل ، والشعر الحر ، وأوزان أخرى بأنساق جديدة، أما النثر الشعرى فكان — ولا زال — دعوة محدودة لم تلق تأييدا يجعلها تشغل موقعا فى خارطة الشعر الحديث ؛ لأنها ليست تطويرا لشعر قديم ، وإنما هى استنساخ ومزج لمجموعة من الألوان التى تأتى تقليدا للغرب وانسلاخا من القواعد العربية الراسخة[١] .

(١) انظر جريدة الأهرام فى يوم ٩ / ١٠ / ١٩٩٤م لمطالعة مقالة الدكتور/ صابر عبدالدايم بعنوان (قصيدة النثر ومزاعم المتشاعرين) وقد نوه فيها إلى رفض الدكتور / محمد مندور وتازك الملائكة لهذا اللون المستحدث من الشعر .

شعر الفصحى

اتجاهات متعددة وألوان متجددة

[١] التيار الاجتماعى فى شعر أحمد عبدالمجيد الغزالى:

جمع الشاعر أحمد عبدالمجيد الغزالى بين العديد من الفنون الأدبية والنقدية ، وقد انتسب إلى قرية (غزالة الخيس) وتخرج من كلية دار العلوم ، وعمل مديرا لمكتب نائب رئيس الجمهورية فى عهد الثورة المصرية، وتفرق شعره بين العديد من الكتب والمجلات ، وقدم العديد من البرامج الإذاعية فى مصر والسعودية، وتوفى ودفن بقريته فى ١٩ / ١ / ١٩٦٢م. وقد جمع شعره قبل وفاته ، وأعده للطبع فى ديوان، وجعل عنوانه(أحلام الفجر)، وكتب معالى الوزير/ إبراهيم الدسوقى أباظة مقدمة له فى ليلة من أمسيات الريف بقرية (غزالة)[١].

وكانت قصيدة (أريد) هى التى استهل به الشاعر ديوانه حيث يقول:

أريد أن تسكبى الأنغام فى خلدى ∴ شبعت أمى فهلا تبعثين غدى ؟
مالى وقيثارة شدت على خشب ∴ وأنت قيثارة شدت على كبدى
جف النشيد على أوتارها فغدت ∴ بكماء لا تحتفى بالطائر الغرد
طوقتها حانيا أبكى لياليها ∴ كما حنا والد بر على ولد
وجددى عهدها الماضى فإن عرضت ∴ ذكرى أناشيدها فى الحب فاتئدى

---

(١) ومحض الأدب بين غيوم السياسة لإبراهيم دسوقى أباظة ص١١٢

وتحدث الدسوقى عن صدق العاطفة عند الغزالى؛ ذلك لأن العاطفة عنصر مهم من عناصر التجربة ، فقال فى المقدمة التى أعدها لأحلام الفجر :

" صاحب (أحلام الفجر) شاعر تنبض العاطفة الجياشة فى كل ما يصادف القارئ من قصائده ومقطوعاته ، ولن تجد بين هذه القصائد — أيا كان موضوعها — قصيدة نبا بها الموضوع عن العاطفة المحتدمة ، والشعور الملتهب فهو يتجاوب مع موضوعه تجاوبا شاملا عميقا، يأخذ عليه أعماق حسه، وقرارة وجدانه ، حتى قصائد المناسبات التى اشتمل عليها ديوانه، تجده قد عقد بينه وبين المناسبة بخيوط قوية من نسيج شعوره[1].

ثم تحدث عن مجموعة من القصائد — ومنها واحدة عن أمجاد اللغة العربية ، واختار بعض الأبيات من ملحمة الزورق من المقطوعتين الثانية والتاسعة، وختم كلمته بحديث موجز عن قصيدة (القمر) مؤكدا عناية الشاعر بالشكل والمضمون .

ينتمى شعر "الغزالى" إلى الاتجاه التقليدى الذى تنصرف العناية فيه إلى الأغراض الشعرية المعروفة ، وإلى الأوزان الخليلية المتوارثة، إذ لم يكن تيار الشعر الحر قد هب على البيئة العربية فى تشكيلاته الموسيقية وألفاظه الجزلة ومضامينه المتجددة ، ويبدو أن الكثير من شعره لم يعثر به فى حياته أو بعد وفاته ، فضاع من الزمن ، أو أن

(١) السابق ص ١١٣ ، ١١٤ .

جزءا منه فى موضع آمن بعيد عن الأيدى والعيون ، فيقى الشاعر مغمورا لا يذكره إلا القليل من الأصدقاء.

وإذا كان "الغزالى" قد عاش معظم حياته قبل الثورة قريبا من الطبقة (الأرستقراطية) فإنه لم ينس هموم الإنسان المصرى، فهتف بصوت الحرية والاستقلال، وغنى للوحدة العربية فى مجموعة من القصائد، منها : (الثورة والاشتراكية) و(الوحدة الكبرى) و(موكب الوحدة).

وقدم مجموعة من الملاحم الشعرية فى الإذاعة، إحداها فى عشر حلقات بعنوان (ليالى العرب) وملحمة بعنوان (العودة) وهى عن اللاجئين ، وأخرى عن (المثنى بن حارثة) ، فضلا عن ملحمة (الزورق) التى تحدث (الدسوقى) عنها ، واختار أبياتا منها .

أما أكثر ما قدمه من ملاحم شعرية فكانت بعنوان (موكب النبوة)، وقد تميز (الغزالى) بهذا الشكل الدرامى المثير الذى يعلو فيه صوت الجماعة على صوت الفرد؛ ليتواكب مع صوت الثورة الذى يزأر بصوت الجماهير . وإذا وازنا ما وصلنا من شعره قبل الثورة بما وصلنا من شعره بعدها فسوف نجد الرجل قد تحول تحولا جذريا إلى التيار الاجتماعى ، فتحدث عن قضايا الشعب، وآلام الجماهير ، وليالى العرب، ومأساة فلسطين، ومن قصيدة له عن حقوق الفلاح فى ظلال الثورة قال:

ذاب فى أرضه ، وفوق ثراها ∴ عرقا سال فى الربى والبطاح

فزهت روضة ورفت ظلالا ∴ تتهادى بين الشذا الفواح
لم يعد شوكها له ، وسواه ∴ ناعم بين وردها والأقاحى
عز فى أرضه الذى عاش دهرا ∴ دامى القيد ، مستذل الجناح
مزق العبد قيده ، ورماه ∴ ومضى فى الحمى طليق السراح[1]

وكانت حقوق الفلاح مهضومة قبل الثورة إلى أن جاءت فردت إليه كثيرا مما سلب منه .

تميل اللغة فى الشعر الاجتماعى إلى السهولة والخفة ، فهى تخاطب بصوت الحقيقة ، وتنأى عن التأنق ، وهذا اللون كان محل ترحيب وحسن استقبال من المستمعين والقراء . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن (الغزالى) لم يكن مغيبا عن الأمة وهمومها فى كل شعر ينشده، وحتى لو كان فى حفلة تكريم لوزير أو أمير ففى قصيدة يشيد فيها بأمجاد (الدسوقى أباظة) قال:

اذكروا مصر والليالى دهاء ∴ صارخات بحقها مجنونه
هاجه أن يضام فى مصر حر ∴ فمضى يمسح الدموع الهتونه
لن تراه إلا مجدا دؤوبا ∴ يدع الغاية البعيدة دونه
سمة النيل فى الجهاد التفانى ∴ إن فى النيل غثه وسمينه[2]

ولم يقتصر الغزالى فى شعره على هذا اللون الذى يتحدث فيه عن أعلام مصر البارزين ، وهمومها الثقال ، وإنما خلد إلى نفسه،

(١) أثر الثورة المصرية فى الشعر المعاصر د/أحمد أحمد بدوى ص٩
(٢) ذكرى يوم خالد للأستاذ إبراهيم الدسوقى أباظة ص ٤٩ ، ٥٠ .

فعبر عن شجونه فى شعر يجمع بين رقة الألفاظ وعذوبة المعانى ، ورهافة الأحاسيس. قال فى قصيدة بعنوان (أشواق) :

يا نبع إلهامى ظمئت إلى المنى ∴ فاروى بأنداء المنى إلهامى
فى خاطرى أمل يرف وفى دمى ∴ شوق يعربد فى فؤاد دام
يتلمسان عهود حبك فى غد ∴ فارعى عهودى فى الهوى وذمامى[1]

لقد عاش "أحمد عبدالمجيد الغزالى" قبل ثورة يوليو ١٩٥٢م وبعدها، وغنى لمصر والوطن العربى، وطالب بحقوق العمال والفلاحين فى شعر رصين، وكتب العديد من الملاحم الشعرية، وغاب صوته بوفاته، إذ كانت أشعاره الاجتماعية تعبيرا عن مرحلة تم تجاوزها،وهذه سمة الشعر الذى يرتبط بأحداث ومراحل ذوات اتجاهات محدودة، ولذلك فإن شعره عن قضايا العامل والفلاح وهموم المجتمع فى عهد الثورة أقصر عمرا إذا ما قورن بالقصائد التى تتصل بالهموم العامة والعواطف الخاصة والأيام الخالدة، واللغة القومية، والملاحم الدينية .

ويبدو أن اتجاهه إلى الشعر الدرامى الذى يؤدى فى الإذاعة والمسرح كان سببا فى انصرافه عن الشعر الغنائى الذى يهش الناس له ويقرؤنه فى منتدياتهم الأدبية ، ويتعرضون له بالشرح والنقد والتفسير، وربما كان اتجاهه إلى هذه المواكب أو الملاحم هو التجديد البارز فى الشعر التقليدى الذى عرف به ، وسار عليه طوال حياته وإن كان نتاج الرجل من الشعر والنثر على اختلاف أشكاله فى حاجة إلى تجميع شامل، وقراءة موسعة، وطبع دقيق، وإخراج سليم .

---

(١) مجلة الهلال ص ٤٨ عدد يوليو ١٩٥٤م .

[٢] الاتجاه الإسلامى فى ديوان [المسافر فى سنبلات الزمن]
الدكتور/صابر عبدالدايم يونس :

لم يخرج د. صابر عبدالدايم من عباءته الدينية منذ طفولته المبكرة التى التحق فيها بالأزهر طالبا ، وخلال مسيرة حياته التى انتقل فيها من مرحلة إلى أخرى ٠

وربما كان ديوانه [المسافر فى سنبلات الزمن] واحدا من دواوينه المتميزة شكلا ومضمونا مما يجعله جديرا بالعديد من الدراسات النقدية، حتى لو كانت بعض قصائده يعود زمانها إلى ما يقرب من ثلاثين عاما ٠

وقد تميز هذا الديوان بتعدد الأصوات فيه بين الشعر التقليدى والشعر الحر، وتنوع البحور فى اللونين، أى أن الأصوات الموسيقية ذوات أنغام متعددة بين البيت المقفى ، والتفعيلة المكررة فى السطر الشعرى ، أما المضمون فيأتى اتساقا مع الرؤية التى يمثلها عصر الشباب بما يحمل من التزام خلقى تفرضه طبيعة النشأة التى عاشها ، وعبر عنها والتزم بها ٠

وتتمحور الرؤية الدينية فى مجموعة من الأبعاد التى تعبر عن تكوينه الدينى ، وطبيعته السمحة ، ولغته النابضة ، والتزامه بقضايا وطنه ، وتتميز تجربته بصدق العاطفة، وعمق الرؤية ، وتلاحم الصور الخيالية المستمدة من التراث الإسلامى، ومن الطبيعة الزاخرة بآيات الله فى الأرض والسماء ٠

ولقد أثيرت حول هذا الديوان ضجة نقدية لما فى بعض قصائده من اقتباس وتضمين من القرآن الكريم لم يتعرض له أحد منذ طبع الديوان، ونعتقد أن لذلك أسبابا كثيرة؛ لإثارة هذا الأمر فى الوقت الراهن ، ربما للحملة التى أثيرت عن محاولة بعض أهل الطرب التغنى بأشعار فيها آيات من القرآن الكريم ، وربما أيضا للإقبال الزائد على القرآن الكريم بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م حتى تعمد بعض الساسة الغربيين الإساءة إلى الإسلام، والاعتذار بعد ذلك عما قالوه ، إلى غير ذلك مما سمعه المسلمون ، وغضبوا منه ، وحزنوا عليه.

ومعنى الاقتباس: أن يأخذ الشاعر أو غيره كلمات أو عبارات قرآنية مع التغيير فيه، فإن ضمها إلى كلامه دون تغيير فيها سمى تضمينا وإن أخذها بهذه الطريقة ، وأشار إلى مصدرها سمى ذلك استشهادا ، ولا شئ فيه ، وقد مارس الأخذ اقتباسا وتضمينا شعراء كثيرون مثل أبى تمام ، ومن بعض الرجال المشهورين فى الأدب والدين والتصوف من القدماء والمحدثين، لكن البعض يرفض هذا الاتجاه ، ويتخوف من خطورة الاستعانة بالجملة القرآنية فى الشعر، بدافع الحرص الشديد على النص القرآنى ، حيث يضعه الشاعر داخل أقواس تفصله عن النص الأدبى، ثم يأتى من يقدر الأمر بطريقته ، فتسقط الفواصل، ويتداخل النص القرآنى مع الشعر ، وهذا لا يجوز فى حق الذكر الحكيم .

ويتساءل البعض فى غمرة هذه الضجة .. ماذا لو دخل الشعر بما فيه من اقتباس قرآنى ساحة الغناء؟ وتخضع القضية لوجهتى نظر بين الإباحة والمنع، لكن الثابت أن الدكتور "صابر" لا يمانع فى الاقتباس والتضمين من القرآن سيرا على طريقة الكثيرين خاصة فى ديوانه الذى بين أيدينا، كما فى قصائده: إيقاع الزمن القادم ــ إشراقات فى سفر التكوين والنبوءة ــ الفزع الأكبر ، ولكنه عدل عن ذلك فى دواوينه التالية مما جعل ديوانه (المسافر فى سبلات الزمن) متميزا فى لغته وسائر تشكيلاته الأسلوبية وصوره وأخيلته ومعانيه الكلية وأفكاره الجزئية . وقد تجلت ملامح التوجه الإسلامى فى هذا الديوان فى عدة خصائص منها :

١ـ الاستعانة بالنص القرآنى جملة ولفظا ومعنى :

ففى قصيدته (الفزع الأكبر) يبدؤها بمطلع مكون من ستة أبيات من أول (سورة الطور) وذكر أن هذا الاختيار له دلالة فنية وربما كانت له دلالة موضوعية وهى اجتياح إسرائيل لأرض لبنان قال :

(والطور)[١] .
(وكتاب مسطور) .
(والشعب المقهور) .
(والقدس المشطور)
(والأقصى المهجور)

(١) سورة الطور آية ١ ، ٢ .

قد (جاء الأمر وفار التنور)
والعالم يغرق فى الديجور
والسلم يفتش عن ساعده المبتور
والشمس تجمع كل حقائبها
ترحل عن زمن يخنق أصداء النور
يبحث عن وجه آخر للعالم
... لا يتوارى خلف قناع شرور
فسماوات العصر انشقت
والأرض أراها قد مدت
(وألقت ما فيها وتخلت) [1] .

وقد وضح مقدار ما أخذه الدكتور / صابر عبدالدايم من القـرآن الكريم اقتباسا وتضمينا[2] ولعل دلالات النص واضحة فى رسم المعاناة العربية والإسلامية للمشكلة الفلسطينية التى لا زالت نيرانهـا مشـتعلة حتى الآن.

وتتلاحم عناصر التجربة فى القصيدة المتجردة من القافية حيـث تتوالى التفعيلات فى دفقات شعورية ، وعاطفة متأججة تعبيـرا عـن المضمون والرؤية الشاملة للواقع المعاش ، ولـذلك تخلـت القصـيدة الجديدة عن الأغراض القديمة، وصارت ذات إيقاعات سريعة متدفقـة

(١) سورة الانشقاق آية ٤ .
(٢) .. النص الشعرى من ديوان المسافر فى سنبلات الزمن ص ٢٨ ص٤٠ .

بما فيها من إيحاءات ورموز، وصور حية نابضة، تتجاوب مع بحر المتدارك ووزن (فاعلن) الذى يأخذ قوالب وأنغاما متعددة.

وعندما يستمد النص الشعرى إيحاءاته من القرآن أو من كتاب دينى أو تاريخى يصبح اقتطاع جزء من القصيدة غير يسير فى ظل الإيماء بوحدة النص.

وكانت قصائد هذا الديوان من نتاج البواكير الشعرية للدكتور/ صابر، أو هى القطفة الأولى من العسل، وقد قلت له: إن هذه التجارب تختلف فى أمور كثيرة عما أفرزته سنوات العمر الأخرى شكلا ومضمونا، وربما كانت إقامته فى مكة سنوات طويلة — بعد زمن القصائد — ومعاناته من غربة النفس والمكان وهموم الأمة الإسلامية والعربية وانكساراتها المخزية جعل الاتجاه الإسلامى يحتويه ويملأ وجدانه وكل حياته، ويظهر جليا فى الأشعار التى قيلت بعد ذلك .

ومن أشعار (المسافر ...) إشراقات من سفر التكوين والنبوءة، معلنة عن قمة إحساسه بالمأساة ، قال:

موسى فى قلب الظلمة يعدو
فالنار — الوعد — نجاة وسماء
كانت فى اليده ، ولا زالت فى القلب
... تصد وتحرق كل الأفاعى
والنار تنادى :
(اخلع نعليك)

إنك في أقدس وادى
وافتح عينيك
واشهد في أعماقي خضرة أعوادى
يتلاشى موسى في الكل ، ويرحل في عين الأشياء[١].

٢ ـ استدعاؤه للشخصيات الإسلامية :

جاء استدعاء الشاعر للشخصيات الإسلامية والتاريخية القديمة في بعض القصائد بما يتواكب مع توجهه الإسلامى ، وانفعاله مع العديد من المواقف في مسيرة الدعوة الإسلامية ، فحياة (أسماء بنت أبى بكر) عامرة بالإيمان والثقة والتحدى، بدءا من حادث الهجرة النبوية بما فيه من مخاطر، ومشاق وإيمان وعطاء إلى تحدى (الحجاج ابن يوسف) في أزمة (عبدالله بن الزبير).

وفي قصيدة (أسماء: الثورة والعطاء والتحدى) يفتح الشاعر ملف التاريخ الإسلامى، وصحائف السيرة النبوية، متحدثا عن لقاء الرسول وصاحبه في الهجرة حتى يصل إلى مأساة ابن الزبير مع الحجاج ، ونؤكد أن الشاعر ليس مؤرخا ، ولم يكن الشعر في يوم مصدرا وحيدا للتاريخ، لكن المواقف التي التقطها ، وانفعل بها ، وغلت فيها مراجل ثورته ، وتأججت عاطفته ثم استجاب معها لنداء العطاء والثورة والرفض في حياة أسماء ، فقال على لسانها ولسان ابنها عبدالله بن الزبير :

---

(١) المسافر في سبلات الزمن ص ١٥ .

ـــ يا عبدالله
لا حاكم إلا الله
لا تعط السارق بستانك
لا تترك فى وجه الإعصار الأهوج أغصانك
صغ من أوتار هداك رماحا تفنى من يخنق ألحانك
واجعل من نبض يقينك صاعقة
تنقض على من يغتال اللحظة إيمانك
ـــ يا أماه : لا أخشى أن أستشهد أن أتلاشى فى نور الله
أن أنفق آمالى وشبابى فى استثمار طريق الله
أن أغدو معبر أمن ونجاة
لضمير صفاه الألم العذب ، ولم يتحول عن وجه الله
لكن يا أماه: ما أقسى تمثل الحجاج إذا عانقت الخلد ..
وحلقت رضيا فى ملكوت الله[1]

وينتقل من الثورة والرفض إلى مشاهد من ملحمة العشق والبطولة فى حديثه عن (محمد بن القاسم الثقفى) الذى فتح الهند فى عهد الوليد بن عبدالملك فى قصيدة تتلو تلك ، وكأنه أراد الموازنة بين ثقفى هنا هو (ابن القاسم) وثقفى هناك هو (الحجاج) ، وتتفق القصيدتان فى النغمة الموسيقية، واللفظة الموحية، والتصوير النابض والاستدعاء للشخصيات الإسلامية.

(١) المسافر فى سنبلات الزمن ص ٢٩ .

٢ـ عشق الوطن والتعبير عن قضاياه :

عاش الشاعر طفولته وصباه وجزءا من شبابه فى أحضان الريف فسمع ناى الحقول، ونوح السواقى، وأحب الأرض، وغنى للأبطال الذين دافعوا عنه ، وتصدوا للمغيرين عليه ، والطامعين فيه.

وقد عاش سنوات الانكسار وحرب الاستنزاف، والرغبة فى الخلاص، وعاد لقريته ، وسعى لحمل الفأس من والده، ولكن مكان الشباب على خط النار فى زمن الحماية والدفاع .

وقال : الفأس من عظامى : والثرى لحمى
مكانك فى خطوط الناس تحرق غابة الظلم
وتنزع من قلوب الناس صبار الأسى المدمى
فقلبى من لهيب الحزن صار كقطعة الفحم[1]

وتتوالى قصائد الرفض للواقع المهان ، وفى غمرة الأحزان يخطو إلى الأمام، حاملا عمره بين يديه ، ورافعا سلاحه ضد الأعداء، وهتف بشرعه فى ربوع وطنه بصوت عال مدو فى قصائده: (لن يموت فى عيونها النهار) و(كلمات على طريق الحرية) و(من فوق حبل المشنقة) ويتحدث بصوت أحمد عرابى فى قصيدة (المنفى داخل الوطن)، وتتأجج الثورة فى أعماقه وهو يزأر فى قصيدته (الكلمة والسيف) و(نقوش على جدار الصحف).

---

(١) السابق ص ٦٠ ، ٦١ .

وقد هتف الشاعر بهذه القصائد الثورية ما بين عام ١٩٧٠م وعام ١٩٧٣م تلك السنوات العجاف بما فيها من ضيق ومعاناة ورغبة فى الخلاص من الأزمة وتحرير الوطن ، تلك الحقبة التى لا يشعر بها إلا من عاشها، واكتوى بنارها ، والقارئ لتلك القصائد يشعر أن الواقع كان مرا والألم كان شديدا، فالقصائد بلاغات ثورية، ولهيب مستعر فى الصدور .

٤ـ رثاء الوالد :

بكى الشاعر والده فى قصيدتين بهذا الديوان ، الأولى بعنوان (العرس والدموع) وهى من الشعر التقليدى الموزون المقفى، والثانية هى (حبيبنا الوحيد) وموسيقاها من الشعر الحر ، ونعتقد أن أوزان الشعر التقليدى هى الأنسب فى غرض قديم كالرثاء، قال فى الأولى :

لسانى معقود ... وفكرى مبعثر ∴ وقلبى بالشكوى يدن ويزفر
وروحى بآفاق الأسى قد تطايرت ∴ كأشلاء آمال على النفس تخطر
وذاب كيانى فى جحيم تألمى ∴ فما عدت إلا بالنوائب أشعر
فكف المنايا قد أطاحت بمهجتى ∴ وموطن آمالى الذى منه أغدر(١)

وقد بلغت أبياتها خمسة وستين، فهى طويلة بالمقياس الحديث للشعر الذى لم يعد يطول فيه صوت الشاعر إلى هذا الحد باستثناء القليل من القصائد ، لعدد محدود من الشعراء .

---

(١) المسافر فى سنبلات الزمن ص ٨٧ .

وتتميز القصيدة بصدق العاطفة ، والإحاطة بالعديد من المعـانى التى يحسها ويشعر بها الإنسان تجاه والده ، خاصة أن الوفاة جـاءت فى أعقاب احتفال الأسرة بحفل عرس مما جعل الخطب فادحـا إذ لـم يكن الشاعر وأخوه فى حالة ينقلبون معها من بهجة الأفراح إلى أحزان الفراق .

ويلاحظ أن هذا النمط التقليدى فى التعبير عن الأحزان لم تغيـر فيه السنون شيئا ذا بال، حتى من كتب عنها جاء حديثه تقليديا خالصـا على طريقة القدماء فى وصف المراثى، قال أحد الباحثين :

" والقصيدة تكاد تكون جسما واحدا، متناسق الأعضـاء، قـوى البنية، تسير فى بناء فنى محكم وتناسق وترابط، فالمعانى مناسبة، ليس فيها طفرة من معنى إلى معنى ، أو شعور بفجوة بين البيت وتاليه، كما أن الشاعر قد أحاط بالمعنى المراد من غير زيادة ولا نقصان[1].

ويأتى الإعجاب بالقصيدة من واقع الميـول والاتجاهـات التـى نهواها من قوة فى الأداء والبناء، وهـدوء الموسـيقى التـى تناسـب الموضوع .

أما القصيدة الثانية فزاخرة بالصور والتشـبيهات المتتاليـة، وإن جاء بعضها غير ملائم لفداحة الخطب كقوله فى البداية :

أتبتر الرحلة يا أبى بسيف هذه النهاية ؟

---

(١) فن الرثاء بين الرجال والنساء فى العصر الحديث د. طه عبدالحميـد زيـد صـ ١٨٦ .

وهل هى النهاية التى تعود منها لساحة البداية ..

وقوله فى المقطع الثانى :

كنت إشارة المزور

لساحة الأمال يا حبيبنا الوحيد

وأنت فى عيوننا فى كل لحظة جديد

فهذه القصيدة الجديدة لم ترق إلى درجة السابقة التى كانت تقليدية خالصة ، لذلك نقرر أن الزمن ليس هو الفيصل فى تقديم نص على آخر ، وكأن هذه القصيدة القديمة ما زالت حية متجددة فى العصر الحديث .

[٣] الاتجاه الإسلامى فى شعر لطفى جادو :

يوم أن قابلت الأستاذ "لطفى جادو" رأيت فيه صورة والده الأزهرى الدكتور/ إبراهيم جادو الذى كان أستاذا لغويا ، وعالما عبقريا ، استفدت من علمه، وتأدبت بأدبه، وسرنى أن ينمو زرعه ، ويثمر زهره شاعرا مبدعا هو الأستاذ/ لطفى جادو الذى ودعناه ، وبكيناه مع أحبابه ، وعارفى فضله ، ورواد شعره فى يوم الخميس التاسع من مارس عام ألفين فى قريته كفر الحمام بمركز الزقازيق .

فالأستاذ لطفى جادو أزهرى ابن أزهرى، ولغوى ابن لغوى ، حفظ القرآن الكريم فى طفولته المبكرة ، وتخرج من كلية اللغة العربية، وعاش الواقع ، وتجاوب معه ، وعبر عنه من أيام حرب

فلسطين وثورة يوليو ، وسائر أيام الوطن بما فيها من هزائم وانتصارات .

وشاءت إرادة الله أن يجمع شعره بنفسه ، وأن يظهر ديوانه الأول مطبوعا بعنوان (وبقى النداء) إيذانا وإعلانا ببقاء صوت الحق ، إذ ليس فى الديوان قصيدة بهذا العنوان كما يفعل الشعراء المحدثون فى تسمية كل ديوان بعنوان قصيدة فيه ، وقصائده كما فى المقدمة : " تدور حول الهم الذاتى والوطنى والقومى ، بل تتسع للهم الإسلامى فى قالب تقليدى يذكرك بديباجة الشعر العباسى شكلا ومحتوى ، عصرى الموضوع لا التناول[1] .

وتتجلى أصالته ومذهبه الشعرى فى قصيدة بعنوان (من وحى البردة) ابتدأ بها الديوان قائلا:

سرى بى الحب فوق المزن والديم ∴ وطرت بالشوق نحو البان والعلم
وما رأيت سوى الذكرى تؤرقنى ∴ ذكرى الأحبة فى واد بذى سلم

ثم قال :

يا سيدى يا رسول الله أنت لنا ∴ فيض من النور والإحسان والكرم
أتى بك الله للدنيا لتنقذها ∴ من ظلمة اليأس والإشراك والندم
أوحى لك الله قرآنا فعز به ∴ قوم ، وساروا إلى العلياء والقمم
يا صاحب الدعوة الكبرى بعثت بها ∴ قوما من الموت والنسيان والعدم
لولاك ما بعثوا يوما وما عرفوا ∴ طريقهم لحياة المجد والشمم[2]

(١) وبقى النداء ص ٢ .
(٢) الديوان ص ٣ .

لقد حظى هذا الراحل الكريم بلقاء الشاعر "محمد العلائي" ، فاستفاد منه ، وعمل بتوجيهاته ، كما أن نشأته الدينية وثقافته الأزهرية ، وموهبته الشعرية جعلت منه نموذجا حديثا لمن يلتزمون بعمود الشعر العربى .

وله قصائد تتجلى فيها الروح الإسلامية صاغها الرجل بأسلوبه التقليدى، ولغته الفصحى، وديباجته المشرقة ، وعاطفته الصادقة ، وتجربته الحية النابضة مثل قصائده: (من وحى الهمزية) و(مولد النور) و(اليتيم) و(من وحى الهجرة) و(سلوا قلبى) وهى قصائد يتضح فيها حب الشاعر لرسول الله ﷺ .

ثم انطلق بيانه فى مجموعة من القصائد عن حب مصر وأعياد سيناء وعن الشرقية، كما تجلى حبه لوطنه فى مجموعة من القصائد عن رجال مصر العظام الذين عرفوا بوطنيتهم المخلصة وإيمانهم العميق .

ثم صدر الديوان الثانى بعنوان (على شاطئ الأيام) ابتداه بمجموعة من القصائد الدينية التى تشكل ملحمة إسلامية تذكرنا بإليادة أحمد محرم ، لكن الأستاذ لطفى جادو ــ رحمه الله ــ لا يتوقف عند هذه الأحداث التاريخية فى حياة الرسول ﷺ ، ولكنه يبكى ويبكينا على الواقع المر المعاش، فتحدث عن مأساة الأفغان قائلا :

ماذا دهاكم أيها الأفغان ∴ ويأى ذنب يقتل الإخوان
كنتم جميعا ثم صرتم فرقة ∴ قد ضمكم لقطيعة الشيطان

ويختم الشاعر هذا الديوان بقصيدة يرثى بها نفسه ، متحسرا على شبابه الذى انقضى ، وعلى أصحابه الذين انتهوا وغابوا، لقد كان بكاء الشاعر فى هذا الديوان طويلا ، وكأنه أحس بشمس حياته تندنو من المغيب ، وأشعل نيران المأساة فى أعماقه ما كان يشهده فى القدس وكوسوفا ، وفى مواقع أخرى كانت تغلى وتلتهب بنيران الفتنة وأتون النكبة ومأساة الانكسار .

[٤] محمد سالم السنهوتى فى شعره الوطنى :

لم يوجد من الشعراء من يقتصر فنه على غرض واحد ، فإذا تصفحت ديوانا لشاعر قديم أو حديث تراه يتحدث فى فنون شتى وموضوعات متنوعة، وأن تصنيفه تحت لون أو اتجاه يكون بالنظر إلى اللون الغالب فى شعره ، أو بالنظر إلى مرحلة من حياته اقتصر فيها على ضروب معينة من الشعر دون سواها، باستثناء شاعر أو أكثر بما لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ومن هؤلاء (عمر بن أبى ربيعة) الذى قال شعره كله فى الغزل فى حدود ما وصلنا من شعره، و(محمد السنهوتى) شيخ شعراء الشرقية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، الذى عاش فى الإقليم ، ولهج بلغته العربية الفصحى وحافظ عليها فى شعره التقليدى الرصين .

وقد ملأ حياته بالكلمة التى يقرؤها ، ويكتبها ، ويهتف به فى محافل العلم وأندية الفكر ، وفى كل تجمع يرى فيه تأثيرا للكلمة بزخمها ، وعبقها ، وقوة الحجة فيها .

وتلقيت منه ـــ ذات مرة ـــ مجموعة من القصائد ، منها واحـــدة صاخبة بعنوان (حديث مع البحر) فرأيت فيهـــا الســـنهوتى بهامتـــه العالية وقامته المشدودة ، وصوته الجهورى فتأكدت أن شعره قطعـــة منه يتماوجان معا بالثورة والاضطراب والانفعال أو بالسكينة والهدوء والوقار ، قال :

يا صاحب البحر إن البحر أسرار ∴ تفجر الموج والأقـدار تختـار
قد جئت أنشد شعرى فى مباهجه ∴ فراعنى أن ماء البحر مـوار
هل عالم البحر مفتون كعالمنـا ∴ به حروب وغـارات وثـوار
قلنا السلام وما كـدنا نردهـا ∴ هنا على البر حتى هب إعصار

وكان عالم البحر محببا للشاعر ، فتحدث عنـه بصـوت آخـر ، وبالعنوان نفسه فى ديوان (شمس لا تموت) [1] وعلى نفس الوزن من بحر البسيط وبالقافية المطلقة التى تتواكب مع حركة المـوج والـدفاع المياه ، فالحديث عن البحر ، والاتجاه إليه بالمناجاة والسؤال يكشـف عن اتساع عالمه، وضعف الإنسان أمامه .

إن "السنهوتى" الذى ودعناه يوم الخميس السابع والعشـرين مـن مارس عام ألفين شق لنا طريقا نروح فيه ونغدو ، ثم نعود إلى (أمـرئ القيس) عندما قال :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ∴ على بأنواع الهمـوم ليبتلـى
فقلت له لمـا تمطـى بصـلبه ∴ وأردف أعجازا وناء بكلكـل

(١) الشمس لا تموت للسنهوتى ص ٢٢ .

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلـى ∴ بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ذلك ما كان ينتاب "السنهوتى"، وهو يبحث عما ضاع من كرامة الأمة ليقع أسيرا لهمومه وأحزانه ، فكلنا نراه غاضبا كأنه إعصار ، نصل فى طريقه إلى (حافظ إبراهيم) ، واللغة العربية تنعى حظها بين قومها :

وسعت كتاب الله لفظا وغايـة ∴ وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ∴ وتنسيق أسماء لمخترعـات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ∴ فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

هكذا عاش "السنهوتى" صاخبا مع الواقع ، هادئا مع كل إشراقة أمل يبعث معها بنسمة حانية إلى كل طفل يبتسم للحاضر والمستقبل.

وكانت الفصحى غاية له يسعى إليها ، ورسالة يحافظ عليها، وكان التجديد فى شعره موجها فى الدرجة الأولى إلى النموذج التقليدى الذى قدم فيه قصص الأطفال فى شعر سهل جميل ، فكان واحدا من الشعراء المعاصرين الذين جمعوا فى تجديدهم للنموذج القديم بين الشكل والمضمون ولقد كتبت مقدمة لديوانه (الشمس لا تموت)، قعد بها وأثنى عليها ، فهو عندما يشدو للأطفال فإنما يشدو لوطنه، وعندما يتحدث إلى الشباب فلأنهم عدة الحاضر وأمل المستقبل، وهكذا تحول الشعر عنده إلى حب صادق للوطن والطبيعة، والإنسان ، واللغة، والطيور الشادية التى يغنى لها فإنه يهيم بها حبا لأرضه ووطنه وكل آماله وطموحاته .

إن قصيدة (حديث مع البحر) من القصائد الصاخبة القوية كالقوة التى يراها الشاعر ممثلة فى مكونات الطبيعة التى هى جزء من

الوطن الذى يغنى له، ويشيد به، ويقبل عليه . والقصيدة متوسطة بين الطول والقصر (ومن خلال النص الذى بين يدى) فهى ستة وعشرون بيتا، وتتكرر فيه لفظ البحر إحدى عشرة مرة، ولا زلنا فى مصر نسمى النهر بحرا مما يتسع معه إطلاق هذا اللفظ على البحار والأنهار، والقصيدة من البحر البسيط (مستفعلن فاعلن أربع مرات)، وهو بحر كثير الورود فى الشعر العربى القديم والحديث.

[٥] بدر بدير فى شعره الوطنى :

هتف الأستاذ "بدر بدير" حسن " بالشعر فى حدود العشرين من حياته بالنظر إلى ما أثبته فى عقب كل قصيدة بديوانه (لن يجف البحر) وربما ضاع الكثير مما قاله قبل ذلك ، لأن تجربته الشعرية التى قرأناها فى الديوان المذكور، وفى الثانى الذى طبع بعنوان (ألوان من الحب) تؤكد أصالة هذه التجربة وعمقها، وتوهج العاطفة فيها، وهو شاعر رومانسى حالم، يغنى لنفسه ، ويغنى لوطنه، وإذا كان التيار الوجدانى سمة من سمات شعره، فإن الشعر الوطنى فى ديوانيه المطبوعين لا يقل عنه صدقا وإخلاصا ومعاناة منذ بيانات ثورة يوليو وطموحاتها الكبيرة ، ويوم أن مات زعيمها كان الشاعر فى غربة قريبة بدولة (ليبيا) فتفجرت ينابيع الحزن عنده، وبكى على رمز الثورة الذى هوى وسقط شهيدا فى ميدان الصلح بين الفرقاء، وكتب الشاعر قصيدته (لن يجف البحر) إعلانا بأن المسيرة مستمرة ، وبحر الوطن مليئ بالرجال الذين يزرعون الأمل فى القلوب. قال :

ذات يوم ونجوم الليل حولى ساهرة

تعبر الأفق وتحبو فى سماء القاهرة
وخطا الليل على الدرب حيارى عاثرة

ذات يوم

بينما أزرع الأفق بذورا للأمل
بينما أنثر من حبى ملايين القبل
حول درب فوقه يحبو وليدى لم يزل

ذات يوم[١]

وينتقل الشاعر فى ثلاثيات تالية إلى البكاء مع شعبه عن الزعيم الذى مات ، ويلاحظ أن الشاعر قد جدد فى الشكل الموسيقى القديم ، إذ لم يلتزم بالقافية فى سائر الأبيات، وإنما جعل كل ثلاثة أبيات تشترك فى حرف روى ثم تتغير القافية مع حرف الروى فى الأبيات الثلاثة التالية، وبعد كل ثلاثة أبيات يأتى بتفعيلة واحدة يختتم بها الثلاثية ٠

ويحمل الشاعر (بدر بدير) أشواقه وأحلامه إلى حيث يعيش مع إخوانه فى ليبيا فرحة الجلاء عن الأرض العربية الليبية، ويعبر عن فرحته بالنصر الجزائرى على الاستعمار الفرنسى، ثم يبكى فى بوليسة الحزين، وهكذا تبدو للقارئ صورة الوطن العربى الأكبر فى رؤية الشاعر التى تجسدت فيها آلامه وأحزانه ، ولذلك فديوان (لن يجف البحر) صورة صادقة لرؤية الشاعر لوطنه خلال أربعين سنة ٠

---

(١) لن يجف البحر صـ٤١ ٠

أما (ألوان من الحب) فلا يعبر عن الاتجاه الوطنى عند شاعرنا بمثل ما يعبر عنه ديوانه الأول ، سوى القصيدة التى يصرخ فيها إلى حماة القدس إذ يرثى فيها آماله وطموحاته، ويصرخ فى وجه كل من يقدر على حمايتها ، وقصر فيها إلى أن آلت إلى حالها البائس الحزين. قال:

هم سلموك
قديسة تصلى
للحب والسلام
ورغم كل ما ترى
من جاحد وخائن
قديسة قديسة
صلاتها محبة
فى قبلة ... فى هيكل ... كنيسة
صلاتها دعاء
أن ترحم السماء
كل الذين يفتحون نافذة
للعدل والضياء
هم أمروا أن يسكتوا ... فسكتوا
هم أمروا أن ينطقوا ... فنطقوا
ما أقبح الكلام والسكوت

خير لمن يكون حاله كحالهم بأن يموت

ولعل القارئ قد لاحظ ما انتاب الشاعر من غضب وضيق على زهرة المدائن .

ولقد استطاع الأستاذ "بدر" بمجموع شعره أن يحتل مكانا خاصا به بين شعراء الشرقية مميزا بسهولة ألفاظه، وفصاحتها ، وخفة أوزانه التى جدد فيها بما لم يخرج به عن النغمة الموزونة فى شعر مقفى فى سائر القصيدة أو فى مجموعات منها أو شعر حر ذى تفعيلة مكررة ، وإن جاء ذلك فى مقدار بسيط بديوانيه (أن يجف البحر) و(ألوان من الشعر)، ولذلك كان هذا التنوع فى الشعر شكلا ومضمونا باعثا على إعادة القراءة والنقد لهذا الشعر الأصيل .

[٦] الاتجاه الوجدانى فى شعر (محمد سليم بهلول) :

لا يقتصر الشعر الوجدانى على الغزل أو النسيب بمفاهيم القدماء، وإنما تجاوز ذلك فى العصر الحديث إلى الحديث عن الحب والطبيعة، والانطلاق إلى العالم الرحب الفسيح للحرية ، والحديث عن الماضى بكل ما فيه من ذكريات ممتعة أو مؤلمة فى ضوء الإطار العام للمصطلح الذى عرض له وتحدث عنه الدكتور / عبدالقادر القط فى كتابه القيم (الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر) .

وقد بدأت معالم هذا الاتجاه فى التجلى مع حركة الإحياء والبعث للشعر العربى فى أواخر القرن التاسع عشر (الميلادى) وهذا الاتجاه قريب فى مضمونه من الرومانتيكية أو الرومانسية التى يعبر بها

الكثيرون نقلا أو تأثرا بالنقاد الأوربيين غير أن ثمة فروقا تفصل بين الاتجاه الوجداني وما يقابله عند الأوروبيين، إذ يتجه مضمونهم إلى الحب والطبيعة ، بينما يتسع مدلول الوجدان إلى المعاني المذكورة، ويتجاوزها للدعوة إلى المثل الأخلاقية وإكبار الجمال ، والنفور من الدمامة في مظاهر الحياة والسلوك[١] .

أما فيما يتصل بالشكل فقد اتجه الشعراء إلى التجديد في القوالب الموسيقية التقليدية فابتدعوا الشعر المرسل، والشعر الحر، واستخدموا ألفاظا محملة بدلالات شعرية وجمالية إلى جوار الألفاظ التقليدية المتوازنة، واعتمدوا في صورهم وأخيلتهم على كثير من التشبيهات المستقاة من الطبيعة الزاخرة بكل معاني الجمال ، وهكذا يبدو الوجدان شاملا لكثير من الدلالات التي تتجاوز المعاني السابقة اعتمادا على أن الوجدان هو منبت الشعر ، وحسب وجهة الشاعر عبدالرحمن شكري الذي صدر الجزء الأول من ديوانه بهذا البيت :

ألا يا طائر الفردو .·. س إن الشعر وجدان

وقد تفاعل الشاعر / محمد سليم بهلول[٢] مع كثير من هذه المعاني، وهو شاعر له نمط خاص لا يقلد فيه أحدا ، ولذلك فإني أرى شعره قطعة منه ، وهو نبض حياته، وشريان روحه، وهمسة وجدانه

---

(١) من مقعد الناقد ــ علي شلش ص ٦٤ .
(٢) شاعر معاصر من أبناء محافظة الشرقية ومن مواليد قرية الفار مركز الزقازيق .

فى رقة الكلمة ، وعذوبة الجملة وقصرها، وحسن تنسيقها، وفى شعره بعض الأنغام الصوتية الحانية على طريقة "نزار قبانى" .

وقد نظم على الأوزان التقليدية ، ولم يخرج على نظام السابقين فى التفعيلات الموسيقية ، لكن التجديد فى الشكل انصب على ما أسماه النقاد "الموسيقى الداخلية" التى تتمثل فى تقسيم البيت إلى مقاطع صوتية ذوات أنغام متناسقة . وقد عاش الشاعر تجربته بعاطفة صادقة، ومعايشة حقيقية واعتمد على التشبيه والاستعارة والجمل القصيرة ، وتظهر شخصيته من شعره فهو شاعر فنان وعاشق ولهان، يحب الحياة والطبيعة والجمال، ويكره الأنانية وعبادة الأشخاص. وفى ديوانه الأول (شواطئ الوجدان) نقرأ من قصيدة (بهلولية) بعنوان : [مولدى وحياتى] هذه الأبيات :

الحب يعنى مولدى وحياتى ∴ وأنا المحب أهيم بالنظرات
وأتيت أنتمس السعادة والمنى ∴ بتعانق النظرات والبسمات
فالوجد من فرط الهيام لهيبه ∴ حفر الضنى فى ملتقى صرخاتى
ما بال أشواقى وصوت زفيرها ∴ كالرعد والبركان والطلقات

وقال :

ولقد أتيت وأنت غاية مقصدى ∴ نبنى الحياة ونصعد الدرجات
ونذوق من ثغر المفاتن شهدها ∴ فيزول ما نلقاه من عقبات
جندت كل مشاعرى وعواطفى ∴ لتكون أعتابى إلى الخيرات

هذا فؤادى من نفيس معادن ∴ فلتفحصيه بأكبر الحسنات
هذى دمائى فاسألى حباتها ∴ ستقول عنك منابع القطرات
هذا لسانى فى مديحك سابح ∴ بين النجوم يعطر الكلمات(١)

والأبيات نموذج حى للشاعر الوجدانى الذى يحدث المرأة ويعشق الطبيعة، ويغنى للحياة، وقال فى قصيدة (لحظة ضعف) :

من ريفنا، من مهد كل جمال ∴ وفضيلة من سالف الأجيال
الماء يجرى فى الجداول فضة ∴ يغرى الحسان بسلسل وزلال
عند النهير ، وبعد مغرب شمسنا ∴ ذهب الأصيل بروعة الآصال
أنت الصبايا والمياه مرادها ∴ وعلى الوجوه براءة الأطفال (٢)

وذكر الشاعر القصة التى أحسن خاتمتها ، جاعلا من الشعر أنشودة للجمال، وسبيلا للإثارة والانتظار حتى لحظة التنوير التى تنفرج فيها الأزمة كما فى الأعمال القصصية والدرامية فالمتلقى لا يكتفى بجمال الشعر ، ولكنه متشوق للأحداث ولحظة النهاية .

ويتجه الشاعر مثل الرومانسيين إلى الطبيعة فيغنى لها، ويقبل عليها فى هذه القصيدة التى تمثل الشعر الوجدانى بخصائصه الفنية، وهى بعنوان (الشمعة) قال:

وجاء الماء وراح الضياء ∴ يلم الشتات ويستعجل
وعم الظلام وجاء الغلام ∴ بشمع أضاء ويسترسل

(١) شواطئ الوجدان ص ٤٨ .
(٢) الديوان ص ٥٦ .

وضوء الشموع كعزف الضلوع ∴ يـــرد الهـــواء ويمـــتقبل
وماء الغدير وعـزف الخريـر ∴ يعطـر النسـيم لنـا يحمـل
وشدو الطيور ، وما فى الصدور ∴ يقول الجمال هنـا يرفـل(١)

وتتواصل رحلة الشاعر مع الاتجاه الوجدانى فى ديوانـه الثـانى (شموس الشرق)، وتصافحنا مجموعة من القصائد التـى تمثـل هـذا الاتجاه مثل (العمر بدأ) و(أحلى خبر) و(فى المكتبة) و(مسكن للحب) و (أنيسة قلبى) و(دماء تتحجر) (٢).

ويتحدث فى شعره عن حياة الحب وأيام الأنس ، وليالى الفـرح والسرور ويحلم باللقاء، ويغنى للطبيعة الساحرة، ويقول فـى قصـيدة (أنيسة قلبى):

أحب الجمـال إلـى المنتهـى ∴ وأعشق فى الحسن عينَ المَهَا
وأهـوى الزهـور بألوانهـا ∴ وسحر الثمار على غصـنها
وأهوى العزوبـة فـى نيلهـا ∴ ورمل الشواطئ فى صـيفها
وشـمس الأصـيل بأطيافهـا ∴ ونسمة صيف حنـا صـدرها
وليـل الصـفاء وسـمارة ∴ وفلك الأحبـة فـى نيلهـا(٣)

ومع أن الشاعر تحدث عن مصر إلا أنه خاطبها بلسان العاشـق المتصوف حيث نشهد فى هذا المقطع ألفاظ الجمال، والعشق ، وعـين

(١) الديوان ص ٦٨ .
(٢) شموس الشرق ص ٦ ، ص ٢١ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٢ .
(٣) شموس الشرق ص ٦٦ .

الميا ، والزهور ، والثمار ، والغصن ، والنيل ، ورمل الشواطئ ، وشمس الأصيل ، ونسمة الصيف ، وليل الصفاء ، وغيرها .

إن أهم ما يميز شعر الأستاذ "محمد سليم بهلول" هو رشاقة ألفاظه وروعة موسيقاه ، وحواراته القصصية وحفاظه على لغته الفصحى ، وتجديده لأدواته الفنية ومضامينه الشعرية .

[٧] الجانب الوجداني في شعر (محمد سليم الدسوقي) :

ليس لمحمد سليم الدسوقي فن شعري يتميز به على سواه من الفنون والأغراض ، فقد نظم في موضوعات شتى فكتب في النواحي الدينية والوطنية والاجتماعية ، وقدم العديد من القصائد في الوجدانيات والحب والجمال .

ونحن إذ نعرض في إيجاز لملامح الرؤية والتشكيل في نتاجه الشعري فإننا نلحظ أنه التقى مع وجدانياته في سائر شعره ، ولم يسكت عن هذا الجانب الذي ربما يرى البعض الحديث عنه وإثباته بعد تقدم العمر نوعا من الكشف لما ينبغي ستره وكتمانه ، وليس ذلك صحيحا ، وإنما الحياة كلها سباحة في بحار من العواطف التي يجيد البعض العوم فيها ، ويخفق الآخرون فلا يصلون إلى شواطئ الأمان .

وقد نشر الرجل ثلاثة دواوين دفعة واحدة وهي : (صلوات على زهرة الصبا) ، (طقوس الليلة الممتدة) ، (الحب في زمن الرمادة) وقدم ألوانا من الفن الشعري التي يحتاج كل فن فيها إلى تحليل وشرح وبيان ، ففي ديوانه الأول تتجلى الروح الوطنية التي يغني بها لمصر

وللأمة العربية شرقا وغربا، وجمع فى هذا الديوان كثيرا مما قاله عشقا لوطنه، وحبا لدينه وإقبالا على أهله ومجتمعه ، وهذه قصيدة هتف فيها بحب وطنه الكبير ، وهى أنشودة تغنى بها أيام أن كان مبعوثا لليمن ، وهى زاخرة بالعاطفة الصادقة، وإن كانت تشكيلاتها الأسلوبية ليست فى مستوى مضمونها الدينى والوطنى، قال:

كل حبى للوطن ∴ ليس فى قلبى وثن
صيحتى أخت زمانى ∴ ويدى فوق الزمن
اصدقوا الفجر آبائى ∴ تشهدوا رجع إبائى
أدبر الجهل وولى ∴ فلتعش عصر الفضاء

والبيتان الأول والثانى يكرران فى نهاية كل بيتين آخرين بحرف روى مختلف تلوينا لنغمات الأنشودة التى تؤدى بمجموعة (جوقة) حسب طبقات الأصوات والألحان.

ونقرأ فى الديوان الثانى بعض القصائد التى تظهر فيها مقدرة (الدسوقى) على التجديد فى الشكل والمضمون ، ففى قصيدة يتحدث عن بعض هموم وطنه من خلال قريته التى سرى الدم فى شريان أبنائها، وهى ذات أبعاد اجتماعية ووطنية عميقة، يقول :

والراحلون بقريتى يتساءلون
عن القطار
عن المحطة
عن بقايا تنتحر

راحت طواغيت السواقى
والرياح الهوج فى عمر المآقى
سكرى تدغدغ لحنها المجروح
بجرشه القطار بلا انتظار
فى محطات الرقيق
الباحثين عن الدقيق

والقصيدة واحدة من تجليات الروح الوطنيـة. وقـد جـدد فـى منظومة الشعر التقليدى، إذ تخلى كثيرا عن القافيـة، ملتزمـا بوحـدة التفعيلة، ووضحت العاطفة صادقة وعميقة.

ويبالغ الأستاذ (الدسوقى) فى تشكيلاته اللغوية مما يخـرج فـى بعض القصائد عن سمت المجددين إلى دائرة المتكلفين . واقـرأ لـه طقوس الليلة الممتدة[1] ثم اقرأ له مجموعة من القصائد الوجدانية التى تعبر عن هذا الجانب فى شعره مثل (إلى فتاة) و(الرحيل فـى زمـن القمر) و(ليلة عرس) .

وفى ديوانه الثالث (الحب فى زمن الرمادة) يقدم قصيدة بالعنوان المذكور يبدى فيها يأسا وألما على حب مضى فى زمن قديم ، وهـذه مقطوعة منها :

---

(١) طقوس الليلة الممتدة ص ٦٢ .

فأراهن أن تبتاع الحب
فتاتى ..
تأسره ..
تطرحه فى قلب السوق
يقلبه الدلال
يساوم فيه السوقة
والنخاسين
وتجار الكلمات
ويساوم فيه الدلالات
يعبق فى قلب الأشواق
عبير الحب الأبيض
قربان الفتيات

ويبدو أن الشاعر قد حشد فى الديوان الأول عذابات الضمير ، واستكثر على نفسه أن يتلو شعرا فيه سعدى ورقية وزينب وتحية ، فلما الداح الجرح رأيناه يقدم أمثلة من دفتر عشقه وقصة غرامه مع محبوبته الواقع والرمز فى شعر متجدد فى الصياغة والمحتوى.

وأخيرا :

تزخر محافظة الشرقية بالعديد من الأدباء والنقاد فى العصر الحديث والمعاصر ، فلا زال لدينا الكثير الذى نرغب فى البوح به عن أدباء هذا الإقليم خاصة ممن لم تعرفهم الساحة، ولم يأخذوا حقهم من الكتابة والنقد والتنظير ، لا فى الشعر فحسب وإنما فى القصة

والرواية، وهذا جانب يحتاج لمزيد من البحث والدرس، أما ساحة النقد والنقاد فعامرة بالشيوخ الكبار الذين تحدث الناس عنهم ، ولكنهم مع ذلك يحتاجون لكتابة أخرى تبرز الجوانب التي لم يعطها الناس حقها من الدراسة والبحث، وعلى العموم فالحركة لم تتوقف، والحياة مستمرة، سواء كتبنا عنهم، أو كتب عنهم الآخرون ، والحمد لله أولا وأخيرا .

مصطفى صادق الرافعى
وتجربته الإنسانية فى الفلسفة والحب والجمال

لقد عرف العالم العربى فى النصف الأول من القرن العشرين العالم والأديب والمفكر الكبير مصطفى صادق الرافعى بآرائه الحرة، ومبادئه الجريئة، ودعوته إلى إحياء الثقافة العربية الأصيلة، والذى كشف ـ رحمه الله ـ عن وجوه من البيان والإعجاز فى كتبه المطبوعة، وأشعاره المتداولة، ومقالاته المتعددة فى الحب والفلسفة والجمال، والتى لا زالت محل تقدير وإعجاب عند الكثيرين .

ومما قاله عنه الزعيم مصطفى كامل : "وسيأتى يوم إذا ذكر فيه الرافعى قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان".

وقد ولد الرافعى عام ألف وثمانمائة وثمانين فى منزل جده لأمه فى بهتيم بالقليوبية، ثم عاد إلى موطن الأسرة فى طنطا، وحصل على الابتدائية ، ومال إلى القراءة الحرة إلى أن أصيب بالصمم ، فانقطع عن التعليم، وبدأ فى كتابة الشعر ، وتنقل مع أسرته بين عدة مدن إلى أن عاد إلى طنطا، واستقر بها، وانصرف إلى التأليف والكتابة حتى وفاته عام سبعة وثلاثين وتسعمائة وألف .

وكان من أبرز الرواد لصالون أدبية مصر والشام (مى زيادة) ودخل فى معارك أدبية وفكرية ضارية مع الدكتور طه حسين حول كتابه (فى الشعر الجاهلى)، ومع الأستاذ عباس العقاد حول ديوانه

(وحى الأربعين) ومع الأستاذ عبدالله عفيفى فى مديحه للملك ، واشتعلت تلك المعارك وغيرها فى ميادين الصحافة والفكر، وتحولت إلى نار حامية غذاها الرافعى بعاطفة قوية ، وأسلوب فريد، حيث كان يجهر بقوله : "إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونى ، فليسمعوا منى".

كان الرافعى ممن يحرصون على الجمال والكمال، ويوثقون العلاقة بين الدين والحب، ومن رأيه أن الكمال الإنسانى يتحقق فى ثلاثة: المبدأ الشريف للنفس، والفكر السامى للعقل ، والحب الطاهر للقلب، ومما قاله عن الحب والفضيلة: "على أنه لا منافرة بين الحب والفضيلة فى رأيي ، فإن أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفرح والحزن لا يكون إلا فى النفس الفاضلة المتورعة عن مفارقة الإثم ، وهنا يتحول الحب إلى ملكة سامية فى إدراك معانى الجمال يرتفع بالآدمية إلى الملائكية؛ ليلتقى النور فنا بعد فن، والفرح معنى بعد معنى، والحزن السماوى فضيلة بعد فضيلة".

ونشر الرافعى فى فلسفة الحب والعشق والجمال ثلاثة كتب فريدة فى موضوعها وهى : رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، أما رسائل الأحزان فهى كتب متبادلة بينه وبين نفسه، حيث جرد منها شخصا آخر يتحدث إليه، وكلاهما يرد على الآخر .

وقد أحس انصراف (محبوبته) عنه، فابتعد عنها بشخصه، وفكر فى روحها، فاستوحاها، وتحول عن الحب والفكر إلى ضجر وضيق ، ومعاناة، وقال فى مقدمتها :

" كان لى صديق خلطته بنفسى زمنا طويلا، وكنت أعرفه معرفة الرأى كأنه شيئ فى عقلى، ومعرفة القلب كأنه شيئ فى دمى . ثم وقع فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسينى، وطار على وجهه حتى غاب عن بصرى، والتفت عليه مذاهبه فما يقع إلى من ناحيته خبر، وامتد بينى وبينه حول كامل خلا من شخصه، وامتلأ من الفكر فيه، كأنه العام الأول من تاريخ حفرة بين القبور العزيزة التى لا تنسى"(١).

وهذه الرسائل من إيحاء (مى) وموجهة إليها؛ تعبيرا عن حبه لها من خلال هذا النمط الفريد فى الأدب العربى الحديث ، وكتبها فى ثمانية وعشرين يوما(٢)؛ لتكون أول ما بينه وبين محبوبته من رسائل الحب، لا لتكون كتابا يقرؤه الناس، وإنما ليكون بين يدى صاحبته تطلع عليه، وتعرف منه بعض ما بداخل هذا الرجل الذى اختار الناس فيه، حيث كانوا يتهافتون على شعره ونثره، وهو منشغل عنهم بتصوير ما فى أعماق قلبه، ومكنون فكره .

وماذا بعد توقف حديثه بهذه الرسائل التى كتبها إلى نفسه، وتكون هى النفس التى يخاطبها يقول:

" ومتى انقطع هذا المدد المتلاحق من كتبى فاجمع الرسائل ، وقدم لها كلمة بقلمك ، ثم اطبعها وسمها (رسائل الأحزان) إنها كانت عواطف ثارت وقتا ما ليحدث منها تاريخ، وسكنت بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة. فإن تجتمع بعد نظرنا فيها معا، وقرأتها عيناك

(١) رسائل الأحزان صـ٥ دار الكتاب العربى.
(٢) من ٢١ يناير سنة ١٩٢٤م إلى ١٧ فبراير ١٩٢٤م.

لقلبي، وإن ارتاح الله لي برحمته رفت عليها روحي فاسمع صوتك في الغيب يرسل لك هذه الروح تحية من أنغام قلبها الميت[١].

ومجموع هذه الرسائل خمس عشرة خلا المقدمة والذكرى والخاتمة وصيغ بعضها شعرا ، ومعظمها نثرا، وما تبقى جاء من اللونين معا.

وتعود بدايات هذه الرسائل إلى عام ١٩٢٣م عندما ذهب إلى ندوة (مي زيادة) فوجدها منصرفة إلى شاعر تحدثه ويحدثها ، ولا توليه اهتماما، فاحمر وجهه، وخرج منصرفا محميا بكبريائه ناسيا حبه؛ ليكون هذا هو الفراق الأخير الذي التجأ بعده إلى القلم يبثه أحزانه وشجونه في هذه الرسائل الفريدة التي قال عنها:"هي"(رسائل الأحزان) لا لأنها من الحزن جاءت، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت، ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان يذيع كالحياة وكان كالحياة ماضيا إلى قبر[٢].

أما (السحاب الأحمر) فيقوم على سبب واحد هو فلسفة البغض وطيش الحب ، ولوم المرأة إذ يستدرج الشخصيات التي تتناول الكتابة عنها؛ لتعبر عن رأيها في الصداقة والحب ، وفي التباغض وطباع النفوس وعواطفها ثم بشرح أفكارها ومشاعرها.

ويعرف الكثيرون بواعث هذا السحاب (الذي جاء بعدما أثير من زوابع وأعاصير حول رسائل الأحزان ... جاء السحاب بعد أن يئس

(١) رسائل الأحزان صـ٧ .
(٢) السابق صـ٣٩ طبع مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٢م.

الرافعي من مواجهة (مي ، وطه حسين ، والعقاد حتى تصور بعض رجالات الأدب والفكر أن ما أثير لم يكن إلا مؤامرة ضد الرافعي أسهم كل واحد من هؤلاء الثلاثة بنصيب فيها كل على قدر توجهه وحكمه على هذا الرجل الذى لم يسكت استسلاما وضعفا ، وإنما حمل القلم ودافع به عن نفسه لتثبيت أركانه، وغرس أوتاده، وشرح فلسفته في الحكم على المرأة اقترابا منها أو ابتعادا عنها، وفى التعبير عن طبائع النفوس وعواطفها، ولم يكن الكتاب على صورة رسائل الأحزان، وإنما كان يستدرج النفوس الغائبة فى العالم الأخر؛ لتعبر عن رأيها في الصداقة والحب أو يستعين بها ؛ لتعبر فى الحقيقة عن رؤية الرافعي، ولم يكن ليسمى محبوبته فى فصول هذا الكتاب، كأنه يريد تأكيد وجوده وتصوير فلسفته التى جاءت غائمة أو مختبأة وراء السحاب الأحمر .

وقد كتب السحاب في شهرين خلال عام ١٩٢٤م وهى مدة وجيزة يعجز فيها أكبر الأدباء والمفكرين عن تقديم مثلا فضلا عن صغارهم، وهذه واحدة من نقاط التحدى التى جاهر وواجه الرافعي بها كثيرا من خصومه خاصة أنه كان يعانى فى الكتابة معاناة شديدة.

إن هذا الكتاب في حاجة إلى قراءات متعددة لكشف ما به من بعض الغموض الذى يثير القلق لدى المتلقى، ولو جرد من بعض صحائفه لكان الباقى أدبا يتيه به الزمان أكثر ما كان عليه الحال فى حياة الرجل وبعد مماته لكنه عند ذلك لن يمثل البيئة ولا الحال المحيط بصاحبه فى زمن التأليف والابتكار .

وفى الفصل الثانى من الكتاب[١] أورد مجموعة من الأحاديث والخواطر فى طائفة من النساء، فيقول مسترددا أنفاسه، ومداقعا عن كرامته وحيه : "وقلت يوما فى صفة .....
.....[٢].

وبعيدا عن المواقع الغامضة قال فى الفصل الثالث عن السجين الذى تبعد به عربة السجناء عن أولاده وزوجته المتعلق قلبها به لينال مصيره المحتوم ، وهنا يتساءل الرافعى : "أجرم السجين فأخذ بذنبه، فما ذنوب هؤلاء جميعا؟ نزت كبدى لما رأيت الحب الهالك يستنفض امرأة السجين ويسوقها جامحة فى عنان الغيظ تترامى على وجهها[٣].

ولم تبعد هذه الفلسفة والرؤية الإنسانية بالرافعى عن دائرة الحب لمى التى أقبل عليها وأدبرت عنه وانصرف إليها وهامت بغيره، ويبدو أن روحه الشفافة السامية لم تستوعب هذا القدر العالى من الجمال، فكانت الغصة التى لم يرتو بعدها أبدا، لكن القلق الذى أصاب الرجل انعكس على السحاب فجاء مشوبا بالاضطراب والقلق، ومصحوبا بالتكلف فى بعض مواقعه .

ويضم الكتاب الثالث (أوراق الورد) الرسائل التى تغنى فيها بالحب والجمال باعثا بها إلى مى وإلى صحفية من لبنان وبعض الجميلات الأخريات .

---

(١) وهو بعنوان : النجمة الهاوية .
(٢) انظر كتاب (الرافعى ومى) ... فى بحث هذا الموضوع .
(٣) الرافعى ومى صـ٢٧ .

أما الرسائل التى تلقتها مى من الرافعى ومن نحو مائة كاتب ومفكر وشاعر وفيلسوف فبقيت سرا محفوظا لم يطلع عليه إلا القليل من المقربين منها .

وجاء[١] انطون الجميل وخليل مطران فجمعا هذه الرسائل وأعداها للنشر إلا أن لطفى السيد اعترض عليهما قائلا : " هذه مؤامرة لم نشأ أن نذيع سرها، ولو شاءت لنشرت هى هذه الرسائل فى حياتها" وجارت الفكر، ولم يظهر الكتاب ...

ولكن من قال إنها لم تشأ ، أليس واردا أنها كانت رغبة لديها ولكن القدر لم يسعفها، ولو تيسر لى جمع هذه الرسائل لاستسمحت من بقى من أسرة هذه الأديبة فى نشر هذا التراث الخالد الذى لا شك فى أهميته بالنسبة للمعارك الأدبية فى الثلث الأول من القرن العشرين.

ويصور فى الكتاب الثالث (أوراق الورد) صلته بمى تصويرا دقيقا وصادقا حيث قال : "إنه ليس معى إلا ظلالها ولكنها ظلال حية تروح وتجيئ فى ذاكرتى[٢].

وتحدث فى مقدمة الكتاب عن نفسه فقال : "وتاريخ الحب عند صاحب هذه الرسائل .....[٣].

---

(١) أهرام ١٩/ ١١/ ١٩٩٩ كلمة للأستاذ ياسر قطامش .
(٢) من كتاب (أوراق الورد) .
(٣) انظر الرافعى ومى صـ٥٠ .

واللغة الشاعرية هي سمة هذا الكتاب خاصة أن به تسع قصصات كاملة، وما عداها فهو شعر ملثور لا يتسنى لكاتب أن يأخذ منه شيئا ويترك أشياء لكن فصول الكتاب لم تكن قاصرة على الحب فانصرف الرجل إلى بحث العديد من القضايا الإنسانية التى شغل بها ، واستكمل بحث الكثير منها فى (وحى القلم)٠

لقد ضم الكتاب خمسا وثلاثين رسالة منها واحدة من كتب مى فى إشارة واضحة إلى أنها كانت تراسله، مع أننا لسنا على يقين من أنها كانت تراسلة إلا إذا تيسر للقراء الإطلاع على كامل تراثها بما فيه الرسائل التى لم تطبع٠

وقد تميز هذا الأديب الحجة، وصاحب الأسلوب المتميز بفن كتابة الرسائل التى لم تختلف من مناسبة لأخرى، وتجلت قدراته فى رسائله إلى صديقه محمود أبى ريه الذى كان يقيم بالمنصورة، وتلقى منه ما يقرب من ثلاثمائة رسالة نشر منها مائتين وثمانى عشرة فى كتاب بعنوان (رسائل الرافعى)٠

كما تحدث عن حبه لفتاة من لبنان، والذى تمخض هذا الحب الأول الذى ذكره للناس عن كتابه (حديث القمر) ، وقد كان هذا الحب بابا واسعا للدخول إلى حب (مى) والإقبال عليها، ثم الانصراف عنها، بعد أن صدم بانشغالها عنه، وانصرافها إلى الكثيرين الذى احتلوا مواقع مهمة فى تفكيرها وعاطفتها، والحوار الطويل معها ٠

وقد جسد الرافعي تجربته في الفلسفة والحب والجمال، وصاغها في ديوان شعري من ثلاثة أجزاء ، عرض فيه لمعظم فنون الشعر، وليس الهجاء منها يقينا، إذ كانت نفسه قوية وعزيمته جبارة ، فمن كلامه "إذا قويت النفس أذلت الدنيا، وإذا ضعفت أذلتها الدنيا، وإن النكبة كلها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته فينكب أول ما ينكب في صبره ويقينه" .

ولقد اتسعت رؤيته الإنسانية ، فحرص على إيضاح نظرة الإسلام للعلاقة بين البشر جميعا من فقراء وأغنياء، قال :

" إن عدل الله يقضي أن يكون للفقير نسبة من الثروة، وإنما الجزء المهم من هذه الثروة هو الإحساس في ضمائر الأغنياء، فإنك لا تجد للفقر في أي عصر من العصور إلا جهة من الخلل في نظام النفس الإنسانية" .

ونأتي إلى منهجه وفلسفته في الحفاظ على بيئة الشرق العربي ومقدساته ولغته العربية الأصيلة، حيث بدأ ذلك بما نشره عن الجامعة المصرية في أعقاب نشأتها يستحثها على ضرورة الصحوة الأدبية والفكرية، فكان أن استجابت لتوجهاته، وأعلنت عن مسابقة لوضع كتاب في آدبيات اللغة العربية ، وهب نشيطا لذلك، وألف كتابه تاريخ آداب العرب ، وطبع الجزء الأول منه في أوائل عام ١٩١١م، وصدر الجزء الثاني في السنة التالية .

لقد نشر الرافعى عددا كبيرا من المؤلفات الرائدة التى تميزه عن غيره وتضعه فى مقدمة الرواد الذين ملأوا البيئة العربية ثقافة وفكرا، وصارت نشأته عبرة للشباب الذى يريد أن يصل إلى المجد ؛ وليرجع من شاء إلى (وحى القلم) من ثلاثة أجزاء، و(تحت راية القرآن) ، و(إعجاز القرآن) وغيرها وغيرها.

أما كتابه (تحت راية القرآن) فيمثل معاركه النقدية مع الدكتور طه حسين إذ كانت نشأته الدينية وثقافته الإسلامية أهم العوامل التى دفعته إلى أن يحتل المنزلة التى وصل إليها، فهو مفكر متمكن وأديب مثالى، اتخذ له أسلوبا خاصا يكتب به ، أسلوبا جمع الفضائل الكتابية فى اللغة ، والخيال، فى البيان والتشبيه، الأسلوب الأدبى الذى التزم به ليبدع فى نطاق المعرفة والثقافة[1].

وقد تغذت روحه، ونمت أفكاره، وتهذب أسلوبه، وتعمقت عاطفته فى جو دينى، وكان بضابقه صممه إلا أنه قد أفاد منه الكثير ، بأن حجب عنه صخب الحياة، وضجيج الناس حوله، فنعم بحريته الفكرية المطلقة.

ولقد شغل الرافعى باللغة، وتأثر بالقدماء من أمثال الجاحظ وأبىحيان التوحيدى، ولم تكن الكتابة البيانية شيئا يسيرا بالنسبة له، حيث تحتاج إلى تأمل طويل للأفكار التى يلتئم منها الموضوع،

---

(١) الرافعى ومى — عبدالسلام هاشم ص٨٩، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى.

وعرض لتلك الرؤية فى مقدمة الجزء الأول من كتابه (وحى القلم) حيث قال :

" لا وجود للمقالة البيانية إلا فى المعانى التى اشتملت عليها، يقيمها الكاتب على حدود، ويديرها على طريقة ، مصيبا بألفاظه مواقع الشعور ، منيرا بها مكامن الخيال ، آخذا بوزن، تاركا بوزن ؛ لتأخذ النفس كما يشاء وتترك، ونقل حقائق الدنيا نقلا صحيحا إلى الكتابة أو الشعر هو انتزاعها من الحياة فى أسلوب ، وإظهارها للحياة فى أسلوب آخر ، يكون أوفى وأدق وأجمل ، لوضعه كل شئ فى خاص معناه، وكشفه حقائق الدنيا كشفة تحت ظاهرها الملتبس".

فالمقالة البيانية تستلزم الدقة والصدق حتى تؤثر فى العاطفة والخيال ويرى أنه لابد لصاحبها من أن يكون ذا بصيرة نافذة، حتى ينكشف له ما فى الدنيا من أسرار وأفكار وروعة وجمال.

وهكذا يتجلى مصطفى صادق الرافعى فى فكره وفلسفته وعالمه الرحب وإيمانه العميق وتراه واضحا فى علاقته بالمرأة وكل جوانب الحياة ويبدو مخلصا غاية الإخلاص وهو يكتب عن الأدب وعن إعجاز القرآن وعن رسائل الأحزان فاستحق التقدير من جمهرة العلماء والمفكرين حتى الذين اختلفوا معه لم ينكروا جهوده فى خدمة التراث الإنسانى واللغة العربية وسائر اللهجات التى تفرعت أو انحرفت عنها، ومما كتب عنه ما يأتى : "اجتمعت فى شخصية الرافعى كل الصفات

الإنسانية للمسلم المؤمن القيم على دينه وقوميته وبلاغة لغته التى أنزل بها القرآن بينات من الهدى إلى الناس"[١].

وقال عنه الدكتور شوقى ضيف "والرافعى حقا من كتابنا القلائل الذين عاشوا معيشة داخلية فى حقائق دنيانا، متجاوزا ظاهرها الحسى إلى قواعدها الروحية الباطنة، وقد أعانه على ذلك صممه المبكر الذى جعله يحيى بين الناس وكأنه غريب عنهم ، ويتحدث إليهم وهو لا يسمعهم، فكان طبيعيا أن يفضى إلى ذات نفسه، وأن يعيش هذه المعيشة الداخلية التى عكف فيها على عقله، وانطلق به متجولا فى باطن الحقائق الظاهرة مسلطا عليها من اشعاعاته العقلية ما جعل معانيها الخفية تتألق أمام عينيه"[٢].

وحسبه ما قاله عنه زعيم الأمة سعد زغلول : "بيانه كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم ، رحمه الله رحمة واسعة جزاء إخلاصه للغة القرآن وأدب العرب وحضارة الإسلام.

كان الرافعى يمتلك أسلوبا قويا يتجه به إلى حيز الغموض ، أو يسمو بصياغته فوق هامة الأساليب الحديثة ، واللغة عنده هادرة متموجة وقوية عنيفة، وينفلت معها لسانه ، فيندفع إلى التطاول على الآخرين ، وكأن الأداة أو التشكيل لديه لا يسعفه فى تسفيه آراء خصومه، فيضم للغته مفردات وتعبيرات مخصصة لهم، ويبالغ فى التكلف وربط أجزاء الكلام خاصة عند التعبير عن حبه، ويميل إلى

(١) السابق ص٨٩ .
(٢) الأدب العربى المعاصر فى مصر ـ د. شوقى ضيف ص٢٤٧ .

الاستطراد وتوليد الألفاظ، والسير على منهاج الجـاحظ وأبـى حيـان التوحيدى فى نصاعة البيان وتعميق الفكر ومزج الشعر بالنثر ، وربما يضعف أمام الآخرين فيتصيد مدحهم له، أو يثنى على مؤلفاته ، ويشيد برسائله وما جاء فيها عن الحب والفلسفة والجمال .

ويبدو أن عاهة (الصمم) التى أصيب بها قد ألحقت به أذى وضررا كبيرا، فتوجس خيفة من بعض مخالفيه كالعقاد وطه حسين، فعاش معظم سنوات حياته فى قلق وهم وضيق ومعاناة .

على أدهم
بين الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ

يعد (على أدهم) واحدا من رواد الفكر المعاصر الذين أثروا المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات الزاخرة التى يذكرها القراء بكل إعجاب وتقدير .

لقد كان الرجل يعيش حياة الأدباء والمؤرخين الذين يقنعون بالقليل من متطلبات الحياة، ويسعون إلى الثقافة والمعرفة بكل شوق ونهم، فجاء إلى الدنيا وغاب عنها بعد أن خلف تراثاً متميزا يقبل عليه الأدباء والنقاد، ويتعلم منه المؤرخون والفلاسفة، ويستفيد به العشاق والمتصوفون .

لقد قرأ الناس حياة العقاد ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، والمازنى وشوقى ضيف ، بأقلامهم التى أرخوا بها لحيواتهم المختلفة ورضى بها البعض ، واختلف حولها الكثيرون، لكن (على أدهم) لم يترك كتابا يروى فيه سيرة حياته الذاتية ، حتى يمكن الرجوع والاحتكام إليه حول أى اختلاف يثار عن مسيرته الفكرية ورحلته العلمية، ولم يكن الرجل متفردا فى هذا المنزع فإن كثيرين مثله تركوا تاريخ حياتهم للآخرين ليقولوا فيه ما لا يمكن أن يقوله الشخص عن نفسه ، وهذه وتلك وجهتا نظر ، أو قضية ذات جوانب متعددة يختلف الناس حولها، ولا يكادون يتفقون فيها .

ونجد بين أيدينا كتابا مهما للأستاذ / أحمد حسين الطماوى ، بعنوان (على أدهم بين الأدب والتاريخ) عرض فيه لحياة على أدهم وكتبه ومقالاته . كما تطالع أطرافا وجوانب متعددة بأقلام أصدقائه وأدباء عصره، أرخوا فيها لحياته ، وتوجهوا لشخصيته، وانتقدوا أو قرظوا العديد من مؤلفاته ، نذكر منهم : العقاد ، وطه حسين ، ووديع فلسطين . وسيد قطب ، ومحمد خليفة التونسى، ورجاء النقاش ، وأنيس منصور ، وعبدالعزيز الدسوقى، ومحمد رجب البيومى، ونبيل فرج ، وغيرهم .

ومما كتبه أحمد الطماوى فى مقدمة كتابه المذكور : لم يترك لنا على أدهم سيرة ذاتية نرجع إليها عند الترجمة له مثل العقاد ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، ولا مذكرات يروى فيها ذكرياته، وأخبار حياته مثل عبدالرحمن الرافعى ومحمد حسين هيكل ، ولا صورا شخصية تعكس بوضوح الملامح النفسية والبيئية الاجتماعية، وظروف النشأة والتربية مثل إبراهيم عبدالقادر المازنى ، ولا هو من كتاب أدب الاعتراف مثل عبدالرحمن شكرى ، وحافظ نجيب ، إن شيئا من هذا لم يكن يشغله .

وإنما شغلته دراسات تحكى رحلة عقل فى عوالم الثقافات ، تبهره المعارف وتطربه الحقائق ، وتستحثه ظواهر الكون إلى التأمل والتصفح ، واستغرقته أسفار تروى قصة نفس توافة لى معرفة أسرار الحياة، وكنه الوجود، وماهية الجسد والروح، وعلة شقاء الإنسان،

والولع بدراسة الأنماط النفسية والسلائق الإنسانية وقدرات العقل وملكات الخيال[١] ، ونفتح صفحات تاريخه فنراها مليئة بالتقلب وعدم الاستقرار فى معظم سنوات حياته، كشأن الحياة السياسية فى النصف الأول من هذا القرن .

ينحدر (على أدهم) بأصوله ونسبه إلى الأتراك ، فقد عاش جده فى (كوتاهية) ونزح إلى مصر فى القرن التاسع عشر ، ومعه ابناه، وأصغرهما يسمى (محمد جمعة) الذى حصل قدرا من التعليم، والتحق بوظيفة فى مصلحة الجمارك بالإسكندرية، وأقام فى رأس التين، وظفر بحب زملائه ورؤسائه والمقربين منه، وأغرم بأدهم باشا الذى حقق انتصارات ساحقة للدولة العثمانية على اليونانيين، ونترك هذا الجانب لنتابع رحلة (محمد جمعة) الذى تزوج من مصرية ، وأنجب منها ولدا فى التاسع عشر من يونية عام ١٨٩٧م أطلق عليه اسم (على) ولإعجابه وتيمنه بالبطل العثمانى (أدهم باشا) سمى ابنه (على أدهم).

تنقل (على أدهم) فى طفولته بين المدارس المختلفة إلى أن نال الشهادة الابتدائية فى مدرسة رأس التين عام ١٩١١م كما تتلمذ على يد (محمود فهمى النقراشى) بالقسم الثانوى فى مدرسة رأس التين ، وتلقى التاريخ والجغرافيا على يد الشاعر المجدد (عبدالرحمن شكرى)، ثم توفى والده، فانتقل إلى القاهرة، ليكون فى معية خاله (أحمد فوزى) المثقف المصرى المستنير فى ذلك الوقت، والتحق بالمدرسة الخديوية،

---

(١) أحمد حسين الطماوى ــ على أدهم بين الأدب والتاريخ ص ٩ ، ١٠ .

والتقى فيها بزميله الطالب (عبدالرحمن صدقى) والذى صار فيما بعد شاعرا مشهورا .

أتم على أدهم تعليمه الثانوى، وحصل على البكالوريا عام ١٩١٦م، وأتاحت له الدراسة بالخديوية والإقامة فى القاهرة أن يتعرف على رواد المدرسة الجديدة فى الشعر وهم: عبدالرحمن شكرى، وإبراهيم عبدالقادر المازنى، وعباس محمود العقاد، أصحاب التيار الأدبى الذى عرف بمدرسة الديوان .

عاد (على أدهم) إلى الإسكندرية، وعمل بها فى مصلحة الجمارك، وتولى والدته بالرعاية والعناية، ولما لحقتها الوفاة شعر بأن الدنيا قد اسودت فى عينيه، فانتقل إلى القاهرة، بوظيفة فى مصلحة الجمارك أيضا، ورست سفينته فى وزارة المعارف التى قضى بها شطرا كبيرا من حياته، وعمل بمكتب الدكتور / طه حسين، عندما كان وزيرا للمعارف، ثم استقر فى إدارة الثقافة حتى خرج إلى المعاش، واستمر فى رحلته الطويلة مع الأدب والنقد والتاريخ والفلسفة، إلى أن توفى فى الثامن من يناير عام ١٩٨١م عن خمسة وثمانين عاما .

والملاحظ أن حياة هذا الكاتب فى مراحلها الأولى لم تكن ناعمة لينة، بل كانت وعرة قاسية، فقد ترك القاهرة، بعد أن شاهد الحركة الأدبية بها، وغمس ريشته فى مداد المجلات الأدبية الذائعة، كما أنه لم يلتحق بالجامعة المصرية أو الجامعات الأجنبية، لكنه تأثر بالعقاد، وسار على نهجه، ونسج على منواله، وحرص على تثقيف نفسه بنفسه،

وقرأ الشعر العربى القديم والروايات الأجنبية المترجمة، وأجاد بعض اللغات الأجنبية، وفى مقدمتها الإنجليزية التى نقل منها إلى اللغة العربية بعض الكتب والقصص والمحاورات ٠

أما حياته الاجتماعية فقد كانت هادئة مستقرة ، إذ رزقه الله زوجة عملت على راحته، وتحملت عنه أعباء المنزل وتربية الأبناء، وهيأت له الجو الملائم للفكر والإبداع، ولم تصرفه عن الرسالة التى شغل بها طوال حياته، وإذا كان الرجل قد ألم بالثقافة الأجنبية فإنه لم يقصر فى حق التراث العربى، فجمع فى جعبته ألوانا مختلفة وضروبا متباينة من الثقافات المتعددة والمعارف المتنوعة، ولذلك غلبت النزعة الإنسانية على فكره ونتاجه بوجه عام ٠

لقد التقى الأدب والتاريخ وامتزجا امتزاجا كبيرا فى كتابات (على أدهم) ولهذا نراه يتحدث عن كتابة التاريخ بالأسلوب الأدبى فيقول: "وكاتب التاريخ ــ سواء كان يكتب عن حياة إنسان أو حياة عصر من العصور ــ يريد أن يثير خيال القارئ ، وأن يوحى إليه ويؤثر فى نفسه فلا مفر له من اتباع أساليب الأدب والفن، ولا نزاع ــ فيما أعتقد ــ أن التاريخ المعروض عرضا أدبيا فنيا يبعد مدى التفكير، ويوسع الخيال، ويخرجنا من قيود الحاضر وسدوده ، ويطلعنا على دنى أخرى مختلفة عن العالم الذى ألفناه . وكدنا لطول الألفة أن نمله، ونتطلع إلى سواه"[١].

---

(١) على أدهم ــ صور تاريخية ص٤ ، ٥ ٠

ومن أهم مؤلفاته فى حقل التراجم الأدبية (صقر قريش) و(منصور الأندلس) ، و(المعتمد بن عباد) ، و(عبدالرحمن الناصر) وهى مجموعة من التراجم القيمة عن أبناء الأندلس وأعلامه المشهورين .

و(منصور الأندلس) علم من أعلام الإسلام وهو من أعظم رجال الأندلس فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، وأقدر وزرائها وأرجحهم وزنا، وأبعدهم غورا ، وأسماهم عبقرية، وأسيرهم ذكرا، وهو أحد الثلاثة الأفذاذ المعدودين فى تاريخ الأندلس السياسى، والآخران هما : الأمير عبدالرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ والخليفة عبدالرحمن الناصر[1]، والكتاب المذكور فى مائة وسبعين صفحة من القطع المتوسط .

كما أخرج مجموعة من الكتب التاريخية التى كان قد قدم أكثرها إلى المجلات المختلفة مثل : "بعض مؤرخى الإسلام"، و(صور تاريخية) و(الهند والغرب) و(شخصيات تاريخية).

وعندما نقرأ التاريخ من خلال كتابات (على أدهم) تشعر بالدقة التامة والأمانة الكبيرة، والواقعية المتميزة خلال المراحل الزمنية المختلفة ، وانعكس ذلك على مقالاته وكتبه ، فخلت (أو كادت) من الخرافات والأوهام، تلك التى تصلح مادة خصبة للأدب والخيال، وتساير العاطفة والوجدان ، ولا تتواكب مع الحقائق والتاريخ .

---

(١) على أدهم ـ منصور الأندلس ص١ .

واقتصر أسلوبه التاريخي على الحقيقة المجردة التي تصور الواقع تصويرا صادقا .

ولقد جمع عددا من الدراسات التاريخية في كتابه (بعض مؤرخي الإسلام) فكتب عن الطبري ، والمسعودي ، وأبي‌حيان التوحيدي، وأبي‌حيان الأندلسي، وابن بسام ، وياقوت الحموي الذي عاش في القرنين السادس والسابع الهجريين ، ومما قاله أدهم عن ياقوت: "والعجيب في أمر هذا الرجل الذي عاش هذه العيشة القلقة المضطربة أن ترك طائفة من الكتب بينها كتابان يعدان من أنفس الكتب في المكتبة العربية، وهما كتاباه: معجم الأدباء الذي سماه ياقوت (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وكتاب (معجم البلدان) [1].

دخل (علي أدهم) إلى التاريخ من بوابة الأدب والنقد التي وشاها وطرزها ببعض الأزاهير المتفتحة والثمار الناضجة والصور الخلابة، ومن أهمها وأبرزها مجموعة من كتبه التي قرأها الناس وأعجبوا بها مثل : (صور أدبية) و(على هامش الأدب والنقد) و(ألوان من أدب الغرب) و(فصول في الأدب والنقد والتاريخ) .

والملاحظ أنه قد حاول بكل جهده أن يربط بين التاريخ والأدب، ويقرب المسافة بينهما، وإذا كان قد ألف كتابه (صور أدبية) فإن كتابه (صور تاريخية) قد لحق به وجاء بعده، وشغل الرجل بهذه العلاقة الحميمة بين التاريخ والأدب وكتب عنها فقال : "وعلاقة التاريخ بالأدب

(١) علي أدهم ــ بعض مؤرخي الإسلام صـ١٢٨ .

والفن علاقة قديمة وحميمة، والقرابة بينهما قرابة جد دانية بل هما توأمان، حياتهما وازدهارهما فى الاقتراب والاتصال ، وفى تباعدهما وتناكرهما ما يعطل نموهما، وما قد يقضى عليهما معا"[1].

وعرض الرجل فى الجانب الأدبى للعديد من الأعلام، وكتب كثيرا من المقالات فى المجلات المختلفة مثل : المقتطف ، والثقافة والرابطة الإسلامية ، والمجلة ، والعربى وغيرها، وشملت كتاباته التى ألفت وانضم بعضها إلى بعض فى كتب متداولة شملت العديد من الأدباء الأعلام من سائر أرجاء الأرض فكتب مثلا عن تولستوى وشو بنهاور وجيته وبلزاك، كما كتب عن الشاعر الفلسفى القديم أبى العلاء المعرى .

ولقد تناول هذا الشاعر من كافة نواحى العبقرية عنده بقلم الفيلسوف الذى لا يقف عند ظواهر الأمور، ولا عوارض الأشياء، وإنما يجول فى أعماق النفس ، وجوانب العظمة، ويجلها، وينتهى إلى النتائج التى لا تقبل الجدل والنزاع ، وقد كتب فى مقدمة مقالة له بعنوان "أبو العلاء وفلسفة التاريخ" قائلا :

" أبو العلاء المعرى شاعر كبير عرك الحياة، وبلا الناس، وترك فى شعره ذخيرة لا يستهان بها لقراء القلب البشرى، ومقتنى غرائب النفس الإنسانية، ولكن شعره الحاشد بالتبرم والسخط والخاص بالتشاؤم والتطير لا يسمو بك فوق متناقضات الحياة إلى عالم الاتساق والتوافق،

(١) على أدهم ــ صور تاريخية ص٣ .

ولا يرفعك إلى الجو الفنى الهادئ حيث تنسى الأوطار والليالـــات، ولا تهفو بك أحزان الحياة، ولا تطرقك هموم العيش، وهو حكيم مخلـص يكشف لك عن أعمق علاقات الكون بالإنسان ، ويحلـو لـك أقـانين الطباع ، ويرسل الضوء فى غيابات النفس، ولكن حكمتـه لا تهـدى الضال إلى الصراط المستقيم، ولا ترفع المصباح لسارى الليل، وخابط العشواء، ولا تؤاسى من ساءه الدهر وتنكر له الحظ ، ولا ترده إلـى الأمل من أزمع اليأس، ولا تزيد المقدامة الشجاع إقداما وشجاعة، بـل قد توهن ارادته وتثلم عزيمته، وتيئسه مـن الصـعود إلـى مصـاف الأبطال ومراتب العظماء ... " .

أما قراءة على أدهم للتاريخ فهى مختلفة عن صنيع الآخرين فهى ليست قراءة سردية جافة، وإنما قراءة المحب العاشق للأحداث حيـث يمعن فيها تحليلا وتفسيرا، وبيانا لرسالة الفرد فى المجتمع ودوره فـى الحياة، ولذلك احتلت حياة المفكرين عنده مكانة مرموقـة خاصـة أن الدور المنوط بكل واحد منهم يختلف كثيرا عما نهض بـه الآخـرون، فغلبت التراجم التاريخية والفلسفية عنده سواها من فنون الكتابة الفنيـة والفلسفية والنقدية .

ولم تقتصر رسالة على أدهم على الأدب العربى وفنونه وتاريخه وإنما صال وجال فى سائر الآداب العالمية مما أسهم فى سعة إدراكـه

وعمق معرفته، وشمول نظرته للأدب والفلسفة والحياة في الأدب العربي والفلسفة القديمة والحديثة على السواء[١] .

ولم تخضع أحكام (على أدهم) ونقداته للمترجم لهم إلى الذاتية المحضة أو العاطفة الخادعة أو الخيال الواهم، وإنما استند إلى الحيدة والموضوعية التي قال عنها أحمد الطماوي : "على أدهم ناقد موضوعي، يميل إلى التحليل والتعليل، ولا ينكر دور الذوق في كتاباته، ولكن لا يوكل العملية النقدية برمتها إليه، عبارته هادئة رشيقة، ومعانيه — على جلالها — سافرة ضاحية ، وحكمه على الأدباء والفنون لا يأتي إلا بعد مصابرة ومراجعة واستيفاء الموضوع الذي يطرحه للنقاش"[٢] .

ولم تتوقف عصارات الرجل وثمار تجاربه عند الأدب والنقد والتاريخ، فقدم مجموعة من الدراسات الفلسفية والاجتماعية نذكر منها: (بين الفلسفة والأدب) ، و(لماذا يشقى الإنسان؟)، و(نظرات في الحياة والمجتمع) .

وربما يظن البعض أن هذا الكاتب المتميز في أساليبه وموضوعاته لم يشارك في الحياة السياسية ، واعتكف في صومعة الأدب والفلسفة والتاريخ، لكن الرجل العاشق لوطنه، المحب لأمته، والذي طوف في قراءاته بين الشرق والغرب، وطالع تجارب الأمم

---

(١) بين الفلسفة والأدب — على أدهم صـ٣٤ دار المعارف ١٩٧٨م.
(٢) أحمد الطماوي — على أدهم بين الأدب والتاريخ ص٣١ .

ومذاهبها السياسية قد شارك بفكره ورأيه قرابة عام فى مجلس قيادة الثورة المصرية فى الخمسينيات، وكذلك لا يخلو نتاجه من الكتب السياسية، فقدم عددا لا بأس به من هذا اللون نذكر منه : (المذاهب السياسية المعاصرة) و(حقيقة الشيوعية) ، و(الشيوعية والاشتراكية) وغيرها .

لقد كرمت الدولة (على أدهم) ، وأهدته وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عن جدارة واستحقاق ، واستقبل الناس كتبه بالإعجاب والتقدير، وتحدث عنه الأدباء والمفكرون من رجالات عصره ، فقال العقاد فى مجلة الدستور عام ١٩٣٩م : "على أدهم رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف، ورؤية العالم، وحماسة الأديب، ويعرف من مذاهب الفلاسفة العظام فى أسرار التاريخ ما ليس يعرفه عندنا غير أفراد معدودين ، فإذا تناول قبيلا أو رجلا أو دولة نفذ إلى موضع الملاحظة والحكمة مما تناوله فى مذاهب التعليل والتحليل" .

وكتب عنه الدكتور / عبدالعزيز الدسوقى فى مجلة الثقافة فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧م فقال : "الميزة الكبرى لعلى أدهم — فى تصورى — هى امتزاج وعيه التاريخى الدقيق بحسه الأدبى العميق، ومن هذين المصدرين: "الوعى التاريخى والحس الأدبى" تشكل مزاجه الفكرى الخاص، وأصبح مؤرخا عظيما، حول أحداث التاريخ، ووقائعه، وشخصياته إلى مادة أدبية خصبة ملهمة مثيرة دون أن يجور على أحداث التاريخ ووقائعه".

وأعدت عنه رسالة جامعية بعنوان (فن المقالة عند على أدهم) فى كلية اللغة العربية بالمنصورة، وكنت أحد المناقشين لها، وساعد بها الكثيرون فى مقدمتهم صديق على أدهم ورفيق دربه الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى الذى كتب عنه مقالة ضافية فى كتاب (دراسات أدبية) الجزء الأول .

هذا هو (على أدهم) الذى كتب الكثير، ولا يعرف الناس عنه إلا القليل، ونرغب من الهيئة المصرية العامة للكتاب أن تولى مؤلفاته بعض العناية اللائقة، فلا يعقل أن يبحث القراء عن كتبه فلا يجدونها.

وإذا كانت الهيئة قد طبعت له من قبل كتابين أو ثلاثة، فإن الحاجة ماسة الآن لإخراج كتبه وإعادة طبعها، حتى يتعرف الجيل الجديد على رواد التنوير فى الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ .

الطبيعة المصرية
فى رواية (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل(*)

(زينب) رواية فنية اجتماعية تعبر عن حب الكاتب لوطنه وفرضه على وصف الطبيعة، ومعالجة الواقع، وإبراز ملامح الحياة فى الريف المصرى بصورة عامة ٠

ولم يتوقف فن الرواية عند حدود فاصلة، فدخل منعطفا جديدا بعد (زينب) لم يكن يتوقعه أحد، فصارت الرواية أنماطا وألوانا تعلق الناس بها، وأقبلوا عليها، ولم تعد قاصرة على مجموعة من حكايات التسلية التى يقضى القراء معها أوقات فراغهم، وإنما صارت ضربا وإبداعا متجددا من التأليف يحمل مضامين جديدة حتى اقتربت صورة الأداء فيها مما يسمى قصيدة النثر، التى كثر الضجيج حولها فى السنوات الأخيرة مع عدم وجود كيان واضح لها فى ساحة النقد والنقاد ٠

وقد سبقت (زينب) بمجموعة من الروايات التى لا يصح إغفالها، ونحن بصدد الحديث عن فجر الرواية الفنية فى مصر، نذكر منها ، القصاص حياة (١٩٠٥م) للكاتب المغمور عبدالحميد خضر البوقرقاصى ، وعذراء دنشواى(١٩٠٦م) لمحمود طاهر لاشين وغيرهما ٠

وكتب الدكتور هيكل هذه الرواية فى مدة وجيزة ، حيث بدأها فى باريس عندما كان يعد رسالته للدكتوراه فى القانون (عن الاقتصاد السياسى)، وكتب جزءا منها فى لندن، وآخر فى جنيف، وذلك قبل أن

(*) الدكتور محمد حسين هيكل أديب وسياسى ومحام معروف (١٨٨٨م — ١٩٥٦م) ٠

يعود إلى مصر فى منتصف عام ١٩١٢م ، ووضع عليها اسم (مصرى فلاح) ثم غيره إلى (فلاح مصرى)، ونشرها لأول مرة عام ١٩١٤م، وأضاف إلى عنوانها الأنثوى قوله : "مناظر وأخلاق ريفية"، وفى عام ١٩٢٩م وضع اسمه عليها ، وطبعها فى العام المذكور وهو الذى نشر فيه الدكتور طه حسين كتابه الأيام .

وذكر الدكتور هيكل سبب اختياره لكلمتى "مصرى فلاح" ولماذا وضعهما على غلاف الرواية بديلا عن اسمه ، قال : "ولقد دفعنى لاختيار هاتين الكلمتين شعور شاب لا يخلو من غرابة ، وهو هذا الشعور الذى جعلنى أقدم كلمة "مصرى" حتى لا تكون صفة للفلاح إذا هى أخرت ، فصارت "فلاح مصرى"، ذلك أنى إلى ما قبل الحرب كنت أحس — كما يحس غيرى من المصريين، ومن الفلاحين بصفة خاصة — بأن أبناء الذوات وغيرهم ممن يزعمون لأنفسهم حق حكم مصر ينظرون إلينا جماعة المصريين وجماعة الفلاحين بغير ما يجب من الاحترام .

فأردت أن استظهر على غلاف الرواية التى قدمتها للجمهور يومئذ ، والتى قصصت فيها صورا لمناظر ريف مصر وأخلاق أهله، وأن المصر الفلاح يشعر فى أعماق نفسه بمكانته، وبما هو أهل له من الاحترام، وأنه لا يائف أن يجعل المصرية والفلاحة شعارا له يتقدم به للجمهور، ينبه به ويطالب الغير بإجلاله واحترامه"[1].

وحولت زينب وغيرها من الروايات المبكرة الإنظار إلى القصة والرواية ، حيث كان فن النص فى أدنى درجات السلم الأدبى، وصار له ما لم يكن فى خيال الأدباء منذ العصر العباسى الأول ، ذلك لأن

(١) من مقدمة الرواية فى طبعتها الثالثة .

المكانة السابقة والسامقة للشاعر كانت متقدمة وبارزة (إذ أن القبيلة كانت تسمو بمن لديها من الشعراء، وكان الشعراء يحتلون مكان الزيادة التوجيهية فى المجتمع ، فلما جاء العصر الحديث وكانت الرواية مرتبطة بمنزلة أدبية متدنية ، وكذلك خشى الدكتور هيكل أن يوصف بكاتب رواية ، فيؤثر الوصف على صفته وعمله فى مهنة المحاماة، ولما ارتقى هذا الفن درجات مهمة فى السلم الأدبى ، لم يعد يخشى من وضع اسمه على رواية أدبية ، مع ما فيها من حب وعشق للطبيعة الشعرية لما لم يعد هذا اللون قاصرا على هيكل وإنما امتد إلى غيره من أعلام الأدب فى عصره مثل الدكتور طه حسين وإبراهيم المازنى وتوفيق الحكيم وعباس العقاد وغيرهم .

وأحب أن أتجاوز معايير القراءة النقدية للرواية الحديثة ، فأقدم فى السطور التالية إلى عرض موجز لرواية (زينب) لعله يناسب بعض الذين لا يجدون لديهم من الوقت والأداة ما يشجعهم على التعامل المعرفى الذى صار سمة بارزة فى النقد الحديث .

أقول: معتمدا على أوراق قديمة عاشت زمنا فى أضابير مكتبى:

إن (حامدا) يعيش بالمدينة وهو مشبوب العاطفة، عاشق للطبيعة، محب للوطن، وعندما يعود فى عطلته السنوية ، ولا يقدر على مفاتحة ابنة عمه (عزيزة) بحبه مع إنما قد خطبا لبعضهما منذ الصغر فتحول بعواطفه المتقدة وعشقه المتأجج إلى زينب العاملة الريفية الجميلة (البسيطة) فيحبها، ويتعلق بها، ويسير معها على مرأى من الآخرين بينما هى لا تنشغل به ولا تطمح فى الزواج منه ، لما بينهما من فوارق طبيعية، وهى على الأقل تعمل فى مزارع والده ويتعلق قلبها بشخص آخر هو إبراهيم رئيس العمال ويقيم به، ولكن أهلها يزوجونها

لحسين خليل وهو من المؤسرين ، وتعيش معه بنفس مضطربة ، حيث بقيت متعلقة بحبيبها إبراهيم الذى سافر إلى السودان ؛ لتأدية الخدمة العسكرية ، أما حامد فقد أصيب بصدمة عنيفة ، بعد أن تزوجت عزيزة ويشتد عذاب زينب بعد سفر حبيبها ، وتصل أحداث الرواية إلى نهاية حزينة فقد أصيبت البطلة بداء الرئة (السل) وتموت ومنديل إبراهيم بين يديها.

وهكذا نلاحظ أن الأحداث ذات مضامين اجتماعية بمعالجة عاطفية رومانسية تتخذ من تصوير المناظر الطبيعية وسائل الحياة فى الريف ميدان أو مسرحا لتشابك الأشخاص والأحداث .

وقد ذكر الدكتور هيكل — بعد أن مر على كتابة هذه الرواية — ما يقرب من عشرين عاما أنها تمثل شبابه تمثيلا صحيحا، وإن فيها كثيرا مما أحب ، سواء لأنه دخل عالم الذكرى، أو لأنه يمثل أحلام الشباب وخيلاته[1] ولعلى أجد فى بعض السطور بالمقدمة إجابة عن سؤال يرد على أذهان القراء فى بدايات القرن العشرين ، بعد أن طبعت الرواية والتى يمكن أن تكون الأولى من الناحية الفنية آنذاك.

وقد حدد قصده ومبتغاه مما كتب فقال :

"ولعل الحنين وحده هو الذى دفع بى إلى كتابة هذه القصة، ولولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفا ، ولا رأت هى نور الوجود، وقد كنت فى باريس طالب علم — كما ذكرت من قبل — يوم بدأت أكتبها، وكنت ما أفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ما خلفت فى مصر مما لا

(١) مقدمة رواية زينب ص ٩ .

تقع عيني هناك على مثله، فيعاودني للوطن حنين فيه عذوبة لاذعة لا تخلو من حنان ولا تخلو من لوعة»[١] .

والأمر الثاني من دواعي الكتابة هو الإعجاب بباريس وحب الأدب الفرنسي ، وقد نص الكاتب على ذلك في أكثر من موضع ، فقال في المقدمة أيضا : «وكنت ولوعا يومئذ بالأدب الفرنسي أشد ولع، فلم أكن أعرف منه إلا قليل يوم غادرت مصر وبضاعتي من الفرنسية لا تتجاوز الكلمات عدا، فلما أكببت على دراسة تلك اللغة وآدابها رأيت فيها غير ما رأيت من قبل في الآداب الإنكليزية ، وفي الآداب العربية رأيت فيها سلاسة وسهولة ... ورأيت مع هذا كله قصدا ودقة في التعبير والوصف ، وبساطة في العبارة لا تواتي إلا الذين يحيون ما يرون التعبير عنه أكثر من حبهم ألفاظ عبارتهم . واختلط في نفس ولعي بهذا الأدب الجديد بحنيني العظيم إلى وطني»[٢] وتجلى تأثر هيكل بالأدب الفرنسي في نهاية أحداث الرواية بمثل الخاتمة التي انتهت إليها رواية (غادة الكاميليا) الزهرة الفرنسية الجميلة لألكسندر ديماس ، كما تجلت الأحداث في قصة زينب عن تأثر المؤلف بأفكار قاسم أمين ، خاصة من خلال كتابيه (تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة).

وكانت زينب الرواية الأولى التي ظهر فيها هذا التأثر، ثم تلتها مجموعة أخرى من الروايات المتعاقبة ، وكان معظمها يحمل اسم شخصية نسائية ، فأحدث هذا نوعا من خلخلة التراتب الأدبي للأنواع

---

(١) السابق ص ٩ .
(٢) السابق ص ١٠ .

الأدبية[١] ، وأحدث كل ذلك تسليطا للأضواء على القرية المصرية بما فيها نموذج الفلاحة التى صنع منها محمود مختار أجمل تماثيله.

وتوالت الأسماء الأنثوية تمثيلا لهذا التوجه ، الذى كان استجابة لمقولات قاسم أمين ، أو تعبيرا عن الأطروحات الجديدة على مستوى الأدب العربى مثل حواء الجديدة لنقولا حداد (١٩٠٥م) وفاتنة الإمبراطور (١٩٢٢م) ومثل (ثريا) (١٩٢٢م) لعيسى حداد[٢].

أما معالجة (حامد) و(زينب) وتوهج الحب فى قلب كل منهما وبحث قضية الزواج ، وتصوير البيئة، وإبراز الملامح الطبيعية فى الحياة المصرية فضلا عن بعض التوجهات الأخرى الخاصة بالتشويق والعقدة والإثارة ، فكانت كلها دوافع ملحة لدخول هذه الأحداث بمعالجتها الفنية إلى عالم السينما فى وقت مبكر جدا مع المتابعة الجادة لهذه القصة ، لكونها عمل فنيا متميزا ولدخولها إلى ساحة الفن السابع.

ومن الملاحظ أن شخصية حامد فى الرواية تمثل شخصية المؤلف ابن صاحب الأرض لكن إحساسه بالواقع فى وطنه أو غربته جاء تعبيرا عن أبناء الطبقة الوسطى من خلال الضياع الذى غرق فيه، وعند الحديث عن مأساة فتاة جميلة من أهل الريف لم تسعد فى حبها ولا فى زواجها الذى انتهى بها إلى المرض ثم إلى الموت.

وهكذا جاءت أحداث الرواية معبرة عن المأساة التى تحياها نسبة كبيرة من فتيات المجتمع ونسائه ، ولكن الهموم متقاربة فى أبرز شخصيات الرواية (حامد ــ زينب ــ إبراهيم ــ عزيزة) ومن الملاحظ

---

(١) انظر كتاب زمن الرواية للدكتور جابر عصفور ص١١١ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) راجع السابق ص١٠٩ .

أن عاطفة الكاتب وهو يصور ذكرياته وحبه لوطنه في غير حاجة إلى دليل فضلا عن رغبته العارمة في التعبير والتصوير مما سماه أدبا جديدا كان يظن — عندما — شرع في الكتابة — أنه سيقدم قصة قصيرة فإذا عيناه لا تبصر إلا الوطن ينفسح أمامه، وتبدو مناظره أمام عيني الكاتب الذي استكمل الحديث عن ذكرياته آنذاك، فقال : "ورأيتني أشعر بلذة دونها لذة كلما سطرت صورة من صور هذا الوطن الذي أحن إليه، ثم راجعتها فرأيتها تترجم عن الحقيقة المرتسمة في نفسي، ولم تمض أسابيع على بدئي الرواية حتى رأيتني اعتزمت إتماما كما تمت، لأصور فيها حياة الريف المصري أصدق تصوير كنت أستطيعه.

والعجيب أن شهوة ملكتني لم أكن أستطيع تفسيرها، ذلك أني كنت أفضل الكتابة في القصة في ساعات الصبح على إثر يقظتي، وكنت إذا بدأت أكتب أسدلت أستار نوافذي فحجبت ضوء النهار، وأضأت مصابيح الكهرباء، كأنما أريد أن أنقطع عن حياة باريس، لأرى في وحدتي وانقطاعي حياة مصر مرسومة في ذاكرتي وخيالي.

أما حين كنت في سويسرا فكثيرا ما كنت — إذا بهرني منظر من مناظرها الساحرة — أسرع إلى كراسة زينب ، فأنسى إلى جانبها منظر الجبل أو البحيرة والأشجار تتسرب من خلال أوراقها أو غصونها أشعة الشمس أو القمر، لتتلاعب بموج الماء أو لتداعبه، وأستعيد مناظر ريفنا المصري وجمال خضرته الناظرة"(١).

وهكذا كانت الرواية تعبيرا عن حب الكاتب لوطنه من خلال تصويره للعادات والتقاليد، ورسمه للمناظر والصور والأخلاق .

(١) السابق صـ١٠، ١١ .

أما المسائل الأخرى ففى مرتبة ثانية كمعالجته لبعض المشكلات الاجتماعية الهامة، مثل حق المرأة فى إبداء الرأى عمن ستكون زوجة له ، ومعاناة أهل الريف من الفقر والجهل والمرض، أما وسائل الكاتب فى الصياغة والتعبير، فلا تخفى على القارئ، فضلا عن تضاريس الرواية ومنافذ الدخول إليها، فقد كان الدكتور هيكل واضح التأثر بآراء قاسم أمين وبالثقافة الفرنسية ، وبسائر النزوى الجديدة فى الآداب الغربية بصورة عامة ٠

ومن المهم فى تمام التعرف على مكونات القصة أن ننقل جزءا منها حتى نرى كيف استطاع الكاتب أن يصور بقلمه المناظر الطبيعية بالقرية المصرية، وأن يبرز للقارئ بساطة الفتاة الريفية والتى تمثلها (زينب) من بعض الجوانب، قال: "وقد أبدعت الطبيعة فى زينب وأعطتها بذلك تاجا معترفا به من كل صويحباتها ، فإذا ساقك الحظ فى أيام الصيف ، وخرجت فى ليل غاب بدره، وتألقت نجومه فخفقت من سواد الليل ، وإن لم تقدر على تبديد ظلمته ، أو كنت أسعد حظا واتخذك القمر رفيقا، فأدلجت بين تلك المسطوحات الزراعية الكبيرة ، لم يكن لك بعد نقطة معينة إلا أن تسير فى طريق لا تعرف سببا لسيرك فيه وتندفع مجذوبا بقوة لا قبل لك على مقاومتها ... ثم تصل إلى نقطة تقف عندها ولا تطاوعك قدمك إلى ناحية أردت تحريكها وعد عنقك وسترجع ، ويستخفك الجمال ويلعب بقلبك الهوى وتروح ثانيا عن كل ما حولك ثم يرتفع تلك الصوت الذى جذبك إلى موقفك ثانيا فتصيخ له بأذنك ، وتصغى بكليتك فإذا زينب تحدو والعاملات من بعد ذلك يجنبها : تلك موسيقى الصيف فى ليله البديع ترسل فى أذن الخليقة النائمة نغمة الهوى ، وتبعث فى قلوب العاملين العذاب عن

ليلهم الساهر وهل هذا الصوت تردده الظلمة الصامتة إلا مهـيج فـى النفس لجمل ما يعزيها عن كل مشقة ؟!

فإن أنت تابعت سيرك ، وأتبعت الوت حتى صرت على مقربـة منه، رأيت فى البحر اللجى من شعاع حـائر فـى السـماء الأطفـال والفتيات ، وقد انتشوا وقبضوا بشمالهم على سيقان القمح الدائم بعضـه فوق بعض كأنه نشوان طرب بتلك العوامل الكثيرة التى تبعث إلى قلب المحزون ما يستخفه ويستهويه وباليمنى على شراشره ـ تلك نصـف الدائرة الحديدية التى وعت عهد فرعون وتسللت مـع الزمـان إلـى عصرنا الحاضر[1].

ومما أخذ على بعض القراءات النقدية لهذه القصة أنهـا تعـالج صياغات وأحداث بلغة أواخر القرن العشرين ، بعد أن مر عليها مـا يقرب من تسعين عاما ذلك لأن ارتباط الرواية بالبيئـة يجعلهـا ذات خصائص مختلفة عن غيرها ، ولأقصد ما صدر من البواكير المتميـزة التى تخضع غالبا لاجتهادات الكاتب ورؤاه والتى لا تحكمهـا قواعـد صارمة فى اللون الأدبى ، الذى يصاغ فيه ، ومن هنا جـاء التغنـى بالطبيعة ووصف جمالها سمة متممة لرسم الشخصيات فأحيانا يكـون الوصف معبرا عن الحيرة التى تعانى الشخصية منها، مثل حامد الذى كتب المؤلف عنه قائلا : " فى ذلك الحلم الطويل كان حامد ينظر فـى الفراغ الهائل أمامه يموج بالنور الساطع على السموات المبيضة تذهب أمام عينيه إلى حيث لا يدرى ، والهواء لا حراك به يتـرك الأشـجار البعيدة فى سكونها المطلق، وأمامه معتدلة قناة الماء تسير وسط الزرع

(١) رواية زينب ص١٨، ١٩ .

الأخضر تتحدر مع تيارها السريع عيدان الرز الساقطة من الخف ويلمع عليها شعاع الشمس المحرقة فى تلك الساعة من النهار ٠

ثم يتوه الكل عند مسافة قريبة لا يتصورها حامد إلى الفضاء العظيم المخوف. والعمال والعاملات يجدون فى عملهم ويتحدثون أحيانا ويضحكون، فتموت أصواتهم حولهم ، ولا يرددها مردد ثم راح فاستند إلى العش ، ووقف يحدق إلى كل ما حوله ، وهو مشتت الفكر لا يفكر فى شئ ولا يعرف شيئا، مبهوتة نفسه ... وأخيرا صمم أن يرجع إلى البلد فى تلك الساعة[1] ، فالحديث عن الطبيعة ومناظرها الخلابة كان ضروريا، لأن معظم الأحداث تجرى بين المزارع وعلى شط الأنهار، وتحت الأشجار ، لكن المبالغة فى التصوير لا يلائم فاعليات السرد وأساليب المعالجة الحديثة حيث تكون اللغة فيها ذات تركيز وخالية مما يمكن أن يعد حشوا لا يمثل إضافة لحركة الأحداث، ولكنه يسهم بدرجة كبيرة فى رسم الشخصيات ، وإبراز توجيهاتها ومعالمها خاصة أن الرواية رسالة حب من الكاتب لوطنه . وهكذا جاء تأسيس الرواية على الوصف الذى ملأ ذاكرة الكاتب فى غربته ، وبدا حامد واضح المعالم بشخصيته المصرية وهمومه الاجتماعية وعدم قدرته على معايشة الواقع فى علاقته بابنة عمه ، أو فى ميله إلى زينب مما انعكس عليه بالحيرة والاضطراب ٠

لقد كان الكاتب معنيا أشد عناية بتصوير الريف تصويرا طبيعيا من حيث العادات والتقاليد ، ومن حيث المناظر الخلابة التى تسر العيون وتجذب القلوب وتحيى النفوس ، وكان نموذجا للشخصية الأولى فى (زينب) حيث يحيا فى تناقض بين أفكاره وبين إيمانه بحق

---

(١) السابق ص١٧٩ ٠

المرأة فى اختيار من ستحيا معه فى حياة زوجية ، واتضح تناقض الكاتب (البطل) فى مخيلته عن هذه الأفكار ، وهو ميله بقلبه نحو زينب ، ويعلم يقينا أنه تعجبه ولا تصلح له زوجة لما بينهما من فوارق متعددة ، فقد كان يلجأ إليها استجابة لعواطفه ، وهروبا من واقعه الذى أحس فيه بالتيه والضياع.

وقد طوق الكاتب فصول روايته بألوان من الصياغات الوصفية الجميلة التى كانت سمة بارزة وطرازا جميلا للأشخاص والأحداث والزمان والمكان ، وجاءت اللغة رقيقة شفافة وهو يرسم بالكلمات شخصية زينب ومناظر القرية وحركة الحياة بها، وفى موقف جمع بين إبراهيم وزينب قال المؤلف ، " أنا مسافر مثل النهاردة هاته هى الكلمة التى قدر إبراهيم أن يقولها لزينب ساعة قابلها راجعة من الموارده تحمل جرتها مملوءة بالماء ، وهذه الكلمة كادت تصعق لها زينب وتقع مغشيا عليها .

رجعت إلى الدار متمهلة فى طريقها يكاد يغيب رشدها كلما استعادت أمام نفسها هاته الكلمة ، ولكنها بالرغم مما عراها من الألم استمرت حتى انتهت من أدوارها المعتادة ، ثم رجعت بجرتها فارغة والوقت مؤذنا بالمغيب فتركتها عند حرف الترعة، ونزلت وسط المزرعة حتى قابلت إبراهيم[1] " .

ومن الملاحظ أن اللغة فى هذه الرواية كان مسار نزاع بين دعاة الفصحى ودعاة العامية ، ولكن استعمال العامية خاصا فى الحوار كان يمثل عند البعض ولا زال سببا للدعوة إلى ما يطلق عليه الصدق الفنى ولكن استعمال الفصحى سردا أو حوارا يعتبر عند الكثيرين مطلبا قوميا وضرورة حتمية تفرضها الظروف والملابسات المحيطة بالمنطقة العربية المتمسكة بلغة الضاد ، وكانت هذه التجربة مرتبطة بالمدة التى ولدت ونشأت فيها الرواية التى بين أيدينا وأقلع الكاتب عن

---

(١) السابق ص٢١٨ .

بريق العامية الزائف ، واستمسك بالفصحى لما فيها من رونق واصالة فكتب بها سائر كتبه ومقالاته الأدبية والدينية والسياسية وغيرهـا مـن الألوان.

وقد عمد إلى استكمال رسم الشخصـيات وتصـوير الأحـداث بالخطابات المتداولة بين حامد وأبيه ، أو بين حامد وإبراهيم ، أو بـين إبراهيم وحسن ، ذلك التوجه الذى كانت تفرضه ملابسات الغربة التى خيمت على حياة المؤلف عند سفره إلى أوربا ولنقرأ ما كتبه فى هـذه الرواية مما يمكن أن يعد استكمالا لبعض العادات بالقرية فى أعقـاب وفاة أحد الأشخاص قال : "خرجت الطبالى قليلة ساعة الظهر، لكننـك كنت ترى ساعة المغرب قريبا من الخيمة المنصوبة جيشا عرمرما من النساء والفتيات وكلهن تحمل صنيتها على رأسها. وصاحبات الصوانى قد حملن فى أيديهن كراسى العشاء وبقين جميعا ينتظـرن أن تخـرج صوانى جماعة الميت ، وفى الخيمة الصامتة يتميـز صـوت قـارئ القرآن يرتله ويتغنى به، فيرسل مع كل آية يقرأ ما يزيد الناس شعورا بالحزن المحيط بهم ، ولما اختتم سورته جاءت الصـوانى، وتسـابق النسوة بما معين إلى الخيمة داخلات كأنهن السيل المنهمر ، ومن بينهم دخلت كبرى أخوات حسن تحمل صنيتهم[1] .

أن رواية زينب للدكتور محمد حسين هيكل واحدة من الأعمـال المتميزة فى مسيرة النثر الأدبى الحديث ، وجديرة بأن تكـون الـنص الروائى الذى لا يختلف اثنان على قيمته ومنزلته فى بـدايات القـرن العشرين ، مع أنها التجربة الأولى للكاتب ، ولما جاءت روايته الثانية (هكذا خلقت) عن المرأة ايضا كان الفن الروائى قد تقدم وتطور كثيرا عن ذى قبل ، ولم يكن لهذه مثل مـا لتلـك مـن الشـهرة والـذيوع والانتشار.

---

(١) السابق صـ٢٩٤ .

الخيال العلمى فى
فن الرواية والقصة القصيرة(*)

لا شك فى أن الفن القصصى قد قطع أشواطا كثيرة من التجريب والتحديث إبان النصف الثانى من القرن العشرين، ووصل بعض الأدباء العظام إلى مستوى متقدم من الثقة فى قدراتهم وعطاءاتهم فى هذا الفن ، فصاروا لا يخضعون للأعراف الثابتة، ويرون أنهم بحالة تتجاوز القواعد والدساتير، وما دام القراء يقبلون على نتاجهم، أو يشاهدونه مصورا ، أو يستمعون إليه مذاعا فليس لأحد أن يعترض عليهم ، أو يناقشهم فى شئ من مكونات العمل الأدبى، وأنهم قد تجاوزوا المراحل الأولى من التجريب الفنى، تلك المراحل التى تليق بالناشئة وأصحاب البواكير الأولى، والتى يكون الأديب فيها غضا لينا محتاجا إلى من يأخذ بيده ويدله على معالم الطريق.

وسواء أكانت هذه الرؤى صحيحة أم مجافية للصواب، فإن بعض الأمور تبقى محظورة لا يصح أن تنتهك حماها خاصة ما اتصل منها بالعقائد والأديان والمبادئ والأخلاق.

أما الخيال فيضيق ويتسع حسب إمكانات الأديب ومقدرته فى تصوير المواقف، والصراع بين شخوص العمل الأدبى بما لا يتعارض مع الأحداث الثابتة فى التاريخ، فالقصة التاريخية (قصيرة أم طويلة) ليست مصدرا رئيسيا يمكن الاعتماد عليه فى تصوير المعارك، وقيام الثورات، وتحديد الصراعات بين الأمم والشعوب، أو حتى بين الأفراد الذين يعيشون على هامش الأحداث.

(*) كلمة مقدمة إلى مؤتمر (ملامح التجريب فى الأدب والإعلام) ، والذى نظمته كلية الآداب جامعة المنيا فى المدة من ٢٤ ــ ٢٥ فبراير عام ٢٠٠٣م والموضوع فى ظلال المحور الأدبى " التجريب فى فن الرواية والقصة القصيرة " .

وتبقى الأسطورة مادة ثرية فى بناء الأعمال القصصية الطويلة، إذ اعتمد الأدب الإنسانى عامة على كثير من الأساطير التى كانت ، ولا زالت أهم الأسباب للإثارة والتشويق، وكان الأدب اليونانى أكثر الآداب التى تمتلئ بالعديد من الأساطير، كما اتسعت وتعددت ملامح الأدب الأسطورى عند الأمم الأخرى مثل الاسبانين والهنود والفرس، ولعل قصص كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة من الأعمال الأدبية الخالدة التى تسجل دور الأسطورة فى الآداب العالمية، وانتقالها إلى الأدب العربى شيئا فشيئا .

ونما الأدب العلمى فى القصة والرواية أيضا مع بداية القرن العشرين، لكن بعض النماذج فى هذا اللون لم يكتب لها الذيوع والانتشار؛ لأن الأدب (قصة ورواية) لا ينبغى أن يجرد تماما من الخيال الذى لا تتحقق النظريات العلمية تحت ظلاله، وهو أى "الأدب العلمى" لون متجدد يجمع بين الأدب والعلم بخيوط فيها نعومة الأدب وصرامة العلم، ومن هنا كان الاتجاه التجديدى فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين نحو أدب الخيال العلمى، والذى صار خاضعا لكثير من التجارب والممارسات النشطة بالمعلومات الكثيرة التى تبثها وسائل المعرفة بسهولة ويسر .

ومن الملاحظ أن هذا اللون بما فيه من إثارة ومتعة لا يقبل عليه الكتاب العرب بقدر كاف ، ولا يمثل باعثا أو هما يقرض نفسه عليهم مع أن المتلقى له يبحث عنه، ويسعى إليه، ولا يجد منه إلا النذر اليسير، فأدباء الخيال العلمى فى القصة القصيرة والرواية قليلون، وإنتاجهم ليس غزيرا، والباحثون عنه كثيرون، وهذه الإشكالية جديرة

بأن تحظى بالبحث والنقاش من المبدعين والنقاد خاصة فى حقل الدراسات الأكاديمية الجادة.

ولماذا انصرف الأدباء عن الكتابة فى هذا الشكل الفنى ؟

نرى أن المبدعين الكبار فى السن مع اقتراب شمس القرن العشرين على الأفول لم تتح لهم سبل المعرفة العلمية الواسعة بالقدر المطلوب؛ حتى يغدوا السير فى طرق المعالجة الدقيقة للإبداع البارز والمتقدم .

وجاء الجيل الجديد الذى نمت ثقافته فى الربع الأخير من القرن الماضى القريب فكان اعتماده فى تكوين معارفه على الذين سبقوه فى عالم الأدب، وليس فى مجال العلم، ولم تتجاوز قدراته الحدود والمعالم التى كانت أخر ما يطمح فيه ويسعى إليه .

أما من اتسعت دائرة الرؤية لديهم فى حقول الإبداع فكانت تجاربهم قليلة، وليست لها أرضية ثابتة وراسخة يمكن من خلالها أن يقدموا الرواية المتميزة أو القصة المبهرة التى تستحوذ على الألباب ، وتشغل الفكر والوجدان باستثناء عدد قليل من المبدعين كانت طموحاتهم راقية ومواهبهم متميزة، وجديرة بأن تشكل علامة بارزة فى مسيرة أدب الخيال العلمى ومن هؤلاء: الكاتب نهاد شريف الأديب المتميز فى كتابة الرواية والقصة القصيرة بمعالجات علمية يشكل الخيال فيها دورا مؤثرا .

لقد حفل الأدب العربى قديمه وحديثه بالعديد من النماذج التى اعتمدت على الأسطورة ، واستمدت وقائعها منها لكن هذه النماذج كانت قليلة لا تصل إلى الدرجة التى تتساوى أو تقترب مما لدى الأمم

الأخرى؛ وذلك راجع لأسباب متعددة لعل منها طبيعة الجنس العربي ومكوناته الدينية والبيئية والعقلية، وعلاقاته بالشعوب المجاورة إيجابا وسلبا.

وإذا كان أدب الخيال العلمي مطلوبا الآن فإن مواقف أكثر الأدباء منه لم تتغير، وبقيت كتاباتهم في إطار الواقع الذي يحيون في ظلاله، وقدم نفر منهم بعض النماذج الأسطورية في الرواية الحديثة مثل أحلام شهر زاد للدكتور طه حسين، ورحلات السندباد للكاتب عبدالرحمن فهمي، وكثيرا ما كانت الأسطورة الوافدة من الأمم الأخرى أو المستوحاة من أعماق التاريخ تتداخل بمستويات مختلفة مع الحكايات الشعبية والخرافية.

وإذا ما عن لي أن أختار جانبا من الأدب لم ينل حظه من التجريب والعناية فإني أرشح أدب الخيال العلمي في القصة القصيرة والرواية جاعلا من الأعمال الإبداعية للكاتب نهاد شريف النماذج المختارة للريادة أولا وللتجريب ثانيا وشاحذا همم الأدباء للكتابة في هذا اللون الذي قطع الأدب العالمي فيه أشواطا كبيرة من الكتابة والتجريب، وحظنا ــ نحن العرب ــ منه نادر أو قليل، فالإنسان العربي في حاجة ماسة إلى العلم بمثل حاجته إلى الأدب، ثم إن انصراف الأدباء والنقاد عن السير في طريق هذا اللون بالكتابة إبداعا ونقدا جعل الشباب والناشئة يتجهون إلى نتاج الأمم الأخرى فيقرؤونه ويهتمون به، ويقبلون عليه.

ومن النماذج البارزة التي تحدث النقاد[1] عنها قصة (قطرة ماء) للدكتور يوسف عزالدين عيسى، والتي تكلم فيها عن قصة رجل يريد

(١) مثل يوسف الشارونى في كتابه الخيال العلمي في الأدب العربي.

الحصول على الشهرة، واتجهت معظم أعمال هذا الأديب العالم إلى تمثيلها إذاعيا قبل طباعتها وانتشارها ٠

ولتوفيق الحكيم بعض القصص التى تسير فى هذا الاتجاه على استحياء مثل قصة الاختراع العجيب، والتى أشار فيها إلى قصة آلة الزمن لويلز[1].

ولبعض الأدباء عدة قصص ينشرونها ضمن مجموعاتهم القصصية مثل "الوحش" و"فى بطن الحوت" لسعد مكاوى، والمنشورتين فى مجموعته القصصية "الفجر يزور الحديقة" ٠

وللدكتور مصطفى محمود روايتان مشهورتان فى أدب الخيال العلمى هما : رواية العنكبوت ١٩٦٤م ، ورواية " رجل تحت الصفر ١٩٦٧" ٠

وقد نشر الكاتب رءوف وصفى مجموعة قصصية فى هذا الاتجاه هى "غزاة من الفضاء ١٩٧٨م"٠

أما رائد هذا اللون بلا منازع فهو الكاتب نهاد شريف ومن أعماله المتميزة فى القصة والرواية :

"قاهر الزمن" رواية ١٩٧٢م

"رقم ٤ بأمركم" مجموعة قصصية ١٩٧٤م ٠

"سكان العالم الثانى" رواية ١٩٧٧م ٠

"أنا وكائنات الفضاء" مجموعة قصصية ١٩٨٣م٠

"الشئ" رواية ١٩٨٨م ٠

---

(١) أدب الخيال العلمى ليوسف الشارونى صـ ١١٠ ٠

ابن النجوم" رواية ١٩٩٧م.

وقد كانت رواية (قاهر الزمن) قفزة جديدا للإنتاج المتميز لأدب الخيال العلمى ، تلك الرواية التى دخل بها الأستاذ (نهاد) العالم الرحب لفن القصة مما جعل الأستاذ يوسف الشارونى يرحب بهـذا المولـود الجديد ويسعد به ويسعى لنشره وتعريف الناس به، قال:

" وتعجبت كيف استطاع شاب حديث التخرج من كلية الآداب قسم التاريخ أن يكتب رواية تدل على خلفية علمية تشربها لدرجة اسـتطاع معها أن يوظفها فى هذا العمل الذى تضافر على إنجاحه جانباه العلمى والأدبى".

وقال الشارونى :

" ولم يكن عمل نهاد شريف مقطوع الصلة بما يجرى فى العـالم من تطورات كان من أبرزها فى ذلك الوقت نجاح الإنسان فى غـزو الفضاء، والوصول إلى القمر ، وإطلاق الأقمار الصناعية، فضلا عن انتشار أدب الخيال العلمى فى العالم الغربى، ولا شك أن إطلاع نهـاد شريف عليه كان من بين الوسائل التى أعانته على التفوق فـى كتابـة روايته الرائدة، وكان أكثر من أديب مصرى ــ وربما عربـى ــ قـد حاول أن يكتب فى هذا النوع الأدبى ، لكن أحدا منهم لم يكرس نفسـه لكتابته على نحو ما فعل نهاد شريف فيما بعد"(١).

وقد انشغل نهاد شريف بموضوع (الأطباق الطائرة) وتجلى فى مجموعته القصصية (أنا وكائنات الفضاء) تلك المسألة التى عالجهـا يوسف الشارونى وكتب عنها قائلا :

---

(١) السابق ص١٠ .

" ونحن نجد أن فكرة الأطباق الطائرة تتردد عند نهاد شريف رائد الخيال العلمى فى أدبنا العربى المعاصر[١] سواء فى قصصه القصيرة أو رواياته ، وينبع شغف نهاد شريف بهذه الفكرة إلى يقينه الراسخ بوجود كائنات — معظمها أكثر ذكاء وفطنة وأفضل أخلاقا من بنى البشر — فى كواكب أخرى بل ومجرات أخرى فى الفضاء"[٢].

وقد أكد نهاد شريف تلك الإشارة فى بعض مقدمات أعماله، وأخص منها المجموعة القصصية " أنا وكائنات الفضاء " والتى تحدث فى مقدمتها قائلا :

" أجل منذ حداثتى وإلى اليوم لا أتوانى إطلاقا عن مد عنقى ، شد عروقى " تقويس ظهرى ، وإلقاء رأسى خلفا" لأطل أراقب ذلك الفضاء الرحب الفسيح الذى يعلونى، والذى يزخر بخلق الله وبديع مخلوقاته ، وكلما ازداد تعلق بصرى بما هو فوق كلما نشط خيالى، وجرى قلمى بالعديد من التصورات والأمنيات والتطلعات والتنبؤات"[٣].

فهذه المجموعة ذات القصص العشر فريدة ومتميزة، وجديرة بأن يعاد تقديمها والتعريف بها للأجيال الجديدة التى تتابع، وتسعى إلى هذا اللون من الكتابة، ولكنها للأسف منصرفة عنه إلى ما عند الآخرين لعدم الثقة — أحيانا — فيما بين أيدينا، وهم معذورون حقا ؛ لأن إبداع الأدباء من قصص الخيال العلمى على المستوى العربى قليل وغير متميز باستثناء عدد قليل من الروايات والمجموعات القصصية ، ولهذا نؤكد على أهمية العناية بقصة الخيال العلمى تأليفا وتمثيلا وتصويرا

(١) اعتراف وإشادة مكررة بعطاء نهاد شريف .
(٢) أدب الخيال العلمى ص٢٣٤ .
(٣) أنا وكائنات الفضاء ص ٤ .

رعاية لحق العلم بمثل العناية بالأدب، ووقاية للأجيال الجديدة مما يمكن أن يلحق بها من أضرار فى غمرة الإعجاب والإقبال على هذا النتاج الذى تفرزه قرائح الآخرين ٠

ونرشح للقراء كتابين يرسمان الحدود البارزة لأدب الخيال العلمى هما: الخيال العلمى أدب القرن العشرين للأستاذ محمود قاسم[١] والخيال العلمى فى الأدب العربى للأستاذ يوسف الشارونى[٢] ٠

أما حقل التطبيق والتجريب فتمثله أعمال الأستاذ نهاد شريف [٣] التى سبق ذكرها ٠

---

(١) طبع الدار القومية للكتاب بتونس عام ١٩٦٣م ٠
(٢) طبع مكتبة الأسرة بمصر عام ٢٠٠٢م ٠
(٣) نهاد شريف: من مواليد محرم بك بالإسكندرية عام ١٩٣٢م ٠
عمل فى الصحافة والثقافة، وكتب للإذاعة والتليفزيون وحصل على الجائزة الأولى من نادى القصة عن رواية (قاهر الزمن)، كما ظفر بالعديد من الجوائز، وترجمت قصصه إلى العديد من اللغات، واعتبر واحدا من رواد أدب الخيال العلمى بمصر، كما تعد كتاباته لونا حديثا من الأدب طال افتقار الأدب العربى إليه ٠
وقد شارك فى تأسيس الكثير من الجمعيات العلمية والأدبية وكانت عضويته بالعديد منها مؤثرة، ولم تتوقف نشاطاته عن حدود مصر ، وإنما امتد بإسهاماته فى تفعيل الثقافة العربية إلى معظم بلدان العالم العربى ٠

بيان إرشادى حول موضوعات الكتاب

م	الموضوع	البيان
١	صوت القبيلة فى شعر الأعشى	نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الثانى والعشرون سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.
٢	شعر الزهد عند أبى نواس	نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد السادس ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م
٣	ملامح البيئة المصرية فى شعر البهاء زهير	نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد الحادى عشر ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م
٤	الحياة الاجتماعية كما صورها البوصيرى	نشر فى مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد الخامس ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤
٥	أبو القاسم الشابى صوت مغرد فى سماء الشعر	يمثل المقال أدب المعاناة والرغبة فى الحياة ، وقدم للبرنامج الثقافى بالإذاعة المصرية فى ١٩٩٩/٩/٢٣ .
٦	شعر الفصحى بين التقليد والتجديد	بحث تم تقديمه إلى مؤتمر الشرقية الأدبى، الذى عقد فى مدينة الزقازيق أيام ١٣، ١٤، ١٥ من أبريل ٢٠٠٢م وتم عرض ما جاء فيه ببرنامج أدب وأدباء بالقناة الرابعة فى التليفزيون المصرى لأول مرة فى ١٤/ ٤/ ٢٠٠٢م

م	الموضوع	البيان
٧	مصطفى صادق الرافعى وتجربته الإنسانية فى الفلسفة والحب والجمال	أذيع فى برنامج أعلام الفكر المعاصر فى البرنامج الثانى "الثقافى" يوم ٢/ ١٢/ ٢٠٠٠م
٨	على أدهم بين الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ	قدم فى حلقة إذاعية بالبرنامج الثقافى يوم ١٣/ ١١/ ١٩٩٤م ونشر فيما بعد بمجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الخامس عشر ١٩٩٥م
٩	الطبيعة المصرية فى رواية زينب للدكتور/ محمد حسين هيكل	كتب خصيصا لهذا الكتاب (نوفمبر ٢٠٠٤م)
١٠	الخيال العلمى فى فن الرواية والقصة القصيرة	قدم لمؤتمر ملامح التجريب فى الأدب والإعلام، والذى نظمته كلية الأدب جامعة المنيا فى المدة من ٢٤ ــ ٢٥ فبراير ٢٠٠٣م

كتب للمؤلف

١ – شعر الحماسة في العصر العباسي الثاني..... ١٩٨٤
٢ – ياقوت الحموي أديبا وناقدا..... ١٩٨٨
٣ – امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين..... ١٩٨٩
٤ – الغموض في شعر أبي تمام..... ١٩٨٩
٥ – شعراء الطائف في الجاهلية والإسلام..... ١٩٨٩
٦ – فن الرواية في المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الأولى)..... ١٩٨٩
٧ – من روائع الأدب العربي في العصرين العباسي الثاني والأندلسي ١٩٩٠
٨ – من روائع الأدب العربي في العصرين الأموي والعباسي. ١٩٩١
٩ – أوزان الشعر ــ دراسة في العروض والقافية..... ١٩٩٤
١٠ – فن الرواية في المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الثانية)..... ١٩٩٥
١١ – دراسات في الأدب الجاهلي..... ١٩٩٨
١٢ – أطوار الأدب العربي في العصر الإسلامي..... ١٩٩٩
١٣ – دراسات في الأدب الأندلسي..... ١٩٩٩
١٤ – مناهج البحث في الأدب واللغة والتربية..... ٢٠٠٠
١٥ – رحيق المعرفة..... ٢٠٠١

١٦ - تاريخ الأدب الجاهلي..... ٢٠٠١

١٧ - أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة..... ٢٠٠٤

تطلب الكتب المذكورة من دور الطبع والنشر الآتية :

١ - المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف ت ٥١٢٠٨٤ .

٢ - مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلي بالقاهرة ت: ٣٩٥٦٧٧١

٣ - مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا ـ القاهرة.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١ -	المقدمة	٣
٢ -	صوت القبيلة فى شعر الأحشى	٧
٣ -	شعر الزهد عند أبى نواس	٣٤
٤ -	ملامح البيئة المصرية فى شعر البهاء زهير	٧٢
٥ -	الحياة الاجتماعية كما صورها البوصيرى	٩٤
٦ -	أبوالقاسم الشابى صوت مغرد فى سماء الشعر	١١٥
٧ -	شعر القصحى بين التقليد والتجديد	١٢٤
٨ -	مصطفى صادق الرافعى وتجربته الإنسانية فى الفلسفة والحب والجمال	١٦٥
٩ -	على أدهم بين الأدب والنقد والفلسفة والتاريخ	١٧٨
١٠ -	الطبيعة المصرية فى رواية زينب للدكتور محمد حسين هيكل	١٩٠
١١ -	الخيال العلمى فى فن الرواية والقصة القصيرة	٢٠٧
١٢ -	بيان إرشادى	٢١٠
١٣ -	كتب للمؤلف	٢١٢
١٤ -	فهرس الموضوعات	٢١٤

تصويب بعض الأخطاء

ص	الخطأ	الصواب
٣٦	كن	كمن
٤١	معتر	معتبر
٤١	إن الموت	إن للموت
٤٢	يانواس	يانواسى
٤٤	لالوك	ثولاك
٥٩	يانواس	يانواسى
٥٩	وتصب	وتعتبر
٥٩	إن ساءك الدهر بشئ	ساءك الدهر بشئ
	ان وبما سرك أكثر	ربما سرك أكثر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠١٢٤ / ٢٠٠٤